

القسم الثالث

حقيقة العلاقة بين هتلر والجنرالات

obeikandi.com

## الفصل التاسع والعشرون

### رأى لا وزن له !

لم تتمكن جيوش الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية . أن تجمع كتيبة من الجزرالات لهم صفة يمكن مقارنتها بتلك التي تولت قيادة الجيوش الألمانية ، وربما كان هتلر هو الوحيد الذى قد يعترض على ذلك بوصفه الرجل الذى كان سبباً في شهرتهم .

ولم يكن الفوهرر يرض بثقته على هؤلاء الجزرالات فحسب ، بل إنه كان يبدي احتقاره لهم . بل يظهر حقه عليهم ، كما سيتضح في هذا القسم من الكتاب الذى لا نستهدف به رواية مسيرة الحرب . ولا استعراض الأجداد والأخطاء التى استحقها أو وقع فيها أصحابها ، إنما الغرض من هذا القسم تبيان الطريقة التى أصبح بها هتلر الرئيس الفعلى للجيوش الألمانية ، وتدخله الشخصى المتزايد فى الشؤون الإستراتيجية والتوجيه المباشر للعمليات . وسلوك الجزرالات إزاء موقفه المتسلط الذى كان يحو أى مبادرة لهم ، وهم نهب للصراع الدائر فى نفوسهم بين واجب الطاعة له ، وبين مشاعرهم الشخصية ووقائع القتال التى أخذت تبتعد تدريجاً ابتداء من عام ١٩٤٣ عن مبادئ الحرب نتيجة لعناد هتلر الذى سيطر عليه مرض خاص ، وهو يعيش فى الجو الصارم الذى سيطر على مقر قيادته العامة .

لقد أهان هتلر رجاله بالجراح من الكلام ، وهزئ منهم ، وحطم نفسياتهم وهم الذين كان من قبل قد أضحى عليهم الشرف والفخار . ولقد صاح ذات يوم فى كبار قادة الجيش وهو يقول : « إن هذه الأفكار تعلق على مستواكم ، وهى ليست فى متناول أيديكم ، ولذلك عليكم فقط إطاعتي طاعة عمياء ! » .

وقد سجل جورنج فى ( يومياته ) بتاريخ ٩ من مارس ١٩٤٣ العبارة التالية : « إن الفوهرر ليست لديه سوى أحكام سلبية عن مجموع جنرالاته ، فهو يقول : إنهم يضلونهم كلما استطاعوا ذلك ، وأنهم مجردون من العلم . بل لا يعرفون شيئاً عن مهنة خوض الحرب ! » .

لقد كان يضع ثقته في السلاح الجوي الذي كان يرى أنه « وطني اشتراكي » . ولا يبالي بالبحرية ، ويحمل ريبة وحنقا على الجيش البري الذي كان يعتبره « رجعياً » . وكان يقول عن قيادات هذه القوات : « إن أغليبتهم من أعضاء تلك الطبقة المدعية النبل ذات العقول الفارغة ، والحيلاء الكاذبة . فلا شيء يخرج منهم إلا العقم ، وهم لم يشاركوا صراحة في قيام الوطنية الاشتراكية . وكان يعنى تماماً أن هؤلاء المحترفين لا يكونون في صدورهم احتراماً له باعتباره ذلك الأومباشى السابق ، ولذلك فإنه تحملهم طوال خمس سنوات إلى أن ، تمكن منهم على المستوى العسكري البحت ، إذ انتصرت كل آرائه على حذرهم . وعلى تفكيرهم التقليدى .

فالبرغم من نصحهم أعاد احتلال إقليم (رينانيا) ، بينما كانت الزهور تطل من فوهات بنادق جنوده ، وضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا بدون سفك قطرة واحدة من الدم ، ثم قضى على بولندا خلال أربعة أسابيع ، وعلى النرويج في ستة أسابيع ، وعلى هولندا في خمسة أيام ، وعلى بلجيكا في سبعة عشر يوماً ، وعلى فرنسا في ستة أسابيع . وعلى يوغوسلافيا في أحد عشر يوماً ، وعلى اليونان في ثلاثة أسابيع . وكانت كل من هذه المراحل تزيد في اعتقاد هتلر - بنظراته الثاقبة - أنه عبقرية إستراتيجية لم يجد بمثلها الدهر !

والمواقع أن الكثيرين قد حكموا بأن هتلر كان إستراتيجياً ممتازاً ، فهو باستناده إلى معارف عسكرية لا جدال في أنها واسعة . ولما وهب له من قدرة على التصور الخلاق . ولما كان فيه من لمحيية ، ولمعرفته الجيدة بآثار المفاجأة ، وما كان يتمتع به من دقة في تحليل نواحي الضعف في الديمقراطيات الأوربية - قد أصبح يمتلك مناقب القائد العظيم .

حقاً إنه كانت فيه نواحي نقص متعددة ، منها : ما كان يحمله على طلب الحصول على المستحيل ، وعدم تكوينه في مدرسة أركان الحرب ، وجهله لعناصر التقنية الأساسية اللازمة لتحريك الجيوش . ولقد فقد أدواته عندما اضطر إلى الدفاع ، فكان من شأن الريبة التي يكنها نحو جنرالاته الذين اتهمهم بعدم التفكير إلا في التفهقر ، وشعوره بالأثفة من إعطاء التفويض بأى انسحاب أو بالدفاع المرن ، وإصراره الذى وصل حد العناد في إنكار الحقائق وواقع القوى العالمية التي جعلها تقف في وجهه - كل ذلك قد حول الفشل الذى واجهه إلى كوارث . إلا أنه ينبغي القول بأن الأمر لو ترك لجنرالاته وحدهم ما كان في استطاعتهم إلا أن يحدوا من الخسائر التي نزلت بألمانيا ، وكأننا ما كان ما سبق من القول فإنه

كان يستحيل عليهم تجنب الهزيمة .

وإذا كانت ألمانيا قد هزمت فإن ذلك راجع إلى أخطاء هتلر السياسية وإلى شرهته أكثر مما يرجع إلى أخطائه العسكرية . كما أنه لم يكن أول من لم يحسن تقدير رد فعل بريطانيا . أو من يقلل من شأن روسيا . أو من انتشى بخمر انتصاراته .

وإذا كان عدد كبير من الجزرالات كانوا يشعرون بالعداء نحو هتلر ابتداء من عامي ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ عندما بدأ بنوح أن ألمانيا منساقاة إلى الهاوية ، فإن القلائل جداً منهم من تجرأ واعترض على تصرفاته أو عارضه فيها . وأقل منهم من تأمر لإسقاطه . والواقع أن يمين الولاء الذي أقسموه للفوهرر . والنظام العسكري الذي جبوا عليه . والخوف من الفشل على أنفسهم وعلى أسرهم ، وواجب الطاعة للرؤساء العسكريين في دولة تحوّل الحرب - كل ذلك لا يفسر كل ما حدث : أولاً لما أكدّه بعض الجزرالات فيما بعد الحرب من أنهم حتى لو كانوا قد تمردوا عليه لما أدرك أحد في ألمانيا معنى لهذا التمرد . ولما اتبعه فيه أحد لا من الجيش ولا من الجاهير . وكان فشل مؤامرة ٢٠ من يوليو مصداقاً لقولهم هذا .

ثم إن هناك أمراً لا يمكن إنكاره ، هو أن هتلر كان يمتلك نوعاً ما من القوى المغناطيسية ، كما كانت له قدرة عجيبة على الإيحاء . قيل عنها : إنها كانت تقنع أي إنسان حتى بما يكن موافقاً عليه .

وأخيراً فإن الإصرار من جانب حلفاء الغرب على ذلك المبدأ الذي يطالب بالاستسلام بدون قيد ولا شرط ، لم يكن من شأنه أن يشجع القادة الألمان على الإقدام على ما بلطخ شرف سيدهم أو ينال من كرامته ، فتركوه يمضي في تحمل مسؤوليته إلى النهاية .

\*\*\*

وقد قال هتلر ذات يوم وهو يتحدث عن الجزرالات : « إن هؤلاء السادة المتأنقين بشرائطهم الحمراء المزدوجة التي وضعوها على أفخاذهم ، يعيشون في نفسى في أغلب الأحيان شعوراً بالقت والكراهية أعمق من الشعور بالحق على اليهود ! . ذلك أن اليهود يعرفون على الأقل حقيقةهم ، فلا يزعمون أنهم جنود ، أما هؤلاء الجزرالات فيطالبون في إلحاح بحقيقتهم في احتكار الجنديّة » .

وقال يوماً آخر : « إن هيئة أركان الحرب الألمانية آخر معقل للماسونية المتآمرة لم أدمره

بعد ! » .

والواقع أن شعور الريبة وعدم الثقة لدى هتلر بالنسبة للجزائراته - وهو الشعور الذى دخل فى مرحلة خطيرة ابتداء ١٩ - كان يحامره منذ استقر له المقام فى السلطة : وفى البداية عمد برغم نظرتة إليهم باعتبارهم طبقة من العسكريين التقليديين تحمل على الشك ، وبرغم حرصه على إبعادهم عن مشروعاته - عمد من قبيل الضرورة إلى إحاطتهم بنوع من الاحترام مبالغ فيه . فلما رأى عزوفهم إزاء ما فرضه عليهم من إجراءات للإسراع بإعادة التسلح ، وهى الإجراءات التى كانوا يؤكدون عدم إمكان إنجازها ، وبعد ذلك نجاحه فى استعادة ( ينانيا ) برغم اعتراضاتهم ، وخوفهم من القوة العسكرية لفرنسا التى كان يعتبرها ضعيفة متهاككة ، ثم وقوفهم فى وجه سياسته الخارجية الهجومية مبررين ذلك بالخوف من ردود الفعل لدى فرنسا وبريطانيا - إذا به يجد فى كل هذا ما يدعم إحساسه بأن هؤلاء الجزائرات انعدمت فيهم روح الجسارة ، والقدرة على التصور ، والمعرفة الواسعة لكل ما هو خارج تخصصاتهم .

ومنذ عام ١٩٣٧ لم يعد يقيم لآرائهم وزناً ، ولا يخشى شيئاً من ردود فعلهم ؛ إذ اقتنع اقتناعاً تاماً بأنهم سوف يسرون وراءه إذا هو انتصر . وفى هذه الفترة نشأت فضيحة لا دخل له فيها على الإطلاق هيأت له الفرصة لكي يقضى على كل شعور بالزهو ناتج عن استقلال القيادات العسكرية :

وكانت هذه هى قصة الزواج الثانى للجنرال فون بلومبرج من إحدى السكرتيرات التى تبين أنها ذات ماض غير نظيف ، والتى أشرنا إليها فى القسم الثانى من الكتاب ، وانتهت بإخراج الجنرال من منصبه بعد تلميح ماضيه العسكرى ، والقضاء على جانب كبير مما كان لطبقة كبار القادة من نفوذ .

\*\*\*

وبمثل هذا الأسلوب قضى هتلر على كل من بلومبرج وفريتش ، وهما أكبر قائدين فى الجيش الألماني ، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمامه لتقليم أظفار هذه الطبقة ، وهو الطريق الذى أدى إلى توليه القيادة العليا لجميع القوات المسلحة وإلغاء وزارة الحرب ، ووضع هيئة أركان الحرب تحت إمرته .

وابتداء من ذلك اليوم - أصبح الفوهرر كل شىء فى الجيش ، وقد استقر فى روعة أنه قوة لا سبيل للوقوف أمامها ، وشخصية لم يخلق أى إنسان ليحل محلها ! وبما يؤكد هذا الرأى أنه أبدى رغبته بعد استسلام بولندا ، فى أن يمضى فى الحرب ، فيضرب بأسرع ما يمكن فى الجبهة

الغربية برغم أن جميع جنرالات الجيش اعترضوا على ذلك ؛ إذ لم يكونوا يشاطرونه تفاؤله فيما يتعلق بتفوق القوات الألمانية ، بل يرون أنه من الأفضل الترام موقف الدفاع ، على أمل في أن يؤدي الانتظار إلى تسوية مع فرنسا وبريطانيا .

في يوم ٥ من نوفمبر ١٩٣٩ أعرب الجنرال فون براوشيتش باسم القوات البرية عن مخاوفه مما قد يسفر عنه الهجوم في الغرب ، فإذا بهتلر يسخر منه علناً ، ويتهم الجنرالات بصفة عامة بالانهزامية والخبث ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يوجه فيها مثل هذه الإهانة إلى الجيش . وبعد ذلك بحمسة عشر يوماً جمع كبار القادة ، وراح ينحو عليهم باللائمة . ثم مضى قائلاً : « لقد كان عدد الذين وضعوا ثقتهم فيّ قليلاً إلى أن جاء بعد ذلك انتصارنا في بوهيميا ومورافيا وبولندا . ولقد أدركت منذ البداية أنني لن أكتفى بإقليم السويديت ؛ إذ لم يكن إلا حلاً جزئياً ، فاتخذت قرار غزو بوهيميا ، ثم بعد ذلك غزو بولندا . وقد يتهمني البعض بأنني أريد الحرب ، وأنى أرغب دائماً في القتال ، لكن القتال هو قدر جميع المحلوقات ، وما من أحد يستطيع تجنب النضال إذا لم يكن يريد أن يموت ! » .

« لقد تحدد كل شيء طالما أن الوقت ملائم لنا ، فإذا انتظرنا ستة أشهر فإن كل شيء يمكن أن يتغير . وبكل تواضع أقول لكم : إنه ما من أحد آخر يمكن أن يعمل محلي ، سواء كان عسكرياً أو مدنياً . وإذا كان الوقت يعمل في مصلحة أعدائنا فإننا يجب أن ننتهز فرصة ميل ميزان القوى لمصلحتنا ؛ لكي نوجه ضررتنا القاضية . »  
« إن قراري هذا لا رجعة فيه ؛ فإنني أهاجم فرنسا في أفضل الظروف الممكنة ، أما حياد بلجيكا وهولندا فليس لها أدنى أهمية ؛ إذ إنه ما من أحد سوف يلومنا بانتهاك هذا الحياد عندما نتنصر . »

« إن كل أمل في التسوية ضرب من هو الأطفال ، وليس أمامنا إلا النصر أو الهزيمة . والمشكلة ليست في قدر ألمانيا الوطنية الاشتراكية ، وإنما في شخص الذي سوف يحكم أوروبا في المستقبل . إن حياتي ليس لها أي قيمة ، لقد سرت بالشعب الألماني إلى بعيد حتى إذا كان العالم اليوم يحقد علينا فإنني أضع كل ما أقوم به في ضربة حظ واحدة : ذلك أن على أن أختار بين النصر أو الدمار ، وقد اخترت النصر . فإذا نحن خرجنا منتصرين من هذه الحرب ، ولسوف تمكن من ذلك ، فسوف يدخل عصرنا هذا في تاريخ شعبنا ، وسوف يحقق هذا

النصر، أو أفنى دونه ، ولن أعمل على هزيمة بلادى ، فلا تراجع أمام الأجنبي ، ولا ثورة فى الداخل » .

على أن هذا الخطاب لم يقنع الجزائريات ، ولم يحدّ عنهم ، وعبثا عرض فون براوشيتش استقالته فى نهاية هذا المؤتمر ، ولكن الجميع خضعوا فى النهاية . وسارع عدد من أعضاء القيادة العامة - ومن بينهم الجنرال ( هالدر ) رئيس الأركان العامة الذين كانوا قد وعدوا بتأييدهم الضمنى لمؤامرة يدبرها الجنرال ( بيك ) - سارعوا إلى سحب هذا التأييد ، إذ أدرك الجزائريات جميعا أن رأيهم لا وزن له لدى هتلر ، إلا إذا هم شاركوه فى مشاعره وتطلعاته .



مناروات ألمانية جرت خلال عام

١٩٣٨

من اليسار إلى اليمين : فون

بلومبرج ، والجنرال جورديان ،

والجنرال فون فريتش يمتطي

صهوة جراده



بعض قوات الجنرال مودل التي

قامت بالهجوم في روسيا وواجهت

مقاومة عنيفة



الجنرال ارنول فون فيترلين الذي أُحيل إلى الاستبدع  
عام ١٩٤٢ ، لأن هتلكان بشك و أنه يتامر  
عليه . وكان سيعين قائداً عاماً للجيش الألماني



الجنرال لودفيج بيك الذي كان رئيساً هيئة  
الأركان العامة عام ١٩٣٥ . وقد تَأمر قبل  
الحرب ضد هتلر ، فطرده عام ١٩٣٨ . وكان  
سيعين رئيساً للحكومة المؤقتة . لو نجحت مؤامرة  
عام ١٩٤٤ .

المارشال فون كلوج ، بعد إصابته في روسيا  
وقد عين في شهر يوليو ١٩٤٤ خلفاً لفون  
رونشت ، الذي كان يتنازعه ماثراً غضب هتلر .  
وقد اكتشف أن من غير الممكن صد الحلفاء ،  
فانتحر بعد ذلك بشهرين .





في يوم ٢٩ من مارس ١٩٤٥ نقل جودريان (إلى اليسار) مهمته إلى الجنرال كرييس (الثاني من اليسار) ويلفت هنا مع مودل والمارشال رونشت (إلى اليمين).



القوات السوفيتية تتقدم إلى الجنوب من دانزيج ، وتدخل وارسو

obeikandi.com

## الفصل التاسع والعشرون

### الخطة الصفراء تنجح نجاحاً ساحقاً

في اليوم العاشر من مايو ١٩٤٠ انتقل الجيش الألماني لكي يهاجم الجبهة الغربية مقتحمًا بلجيكا وهولندا ، وما إن انقضت ثلاثة أيام حتى كان الجانب . الأكبر من سلاح المدرعات قد عبر ( الأردن ) ، ووصل إلى نهر ( الموز ) . واجتازه في أقل من أربع وعشرين ساعة ، فأنزل بذلك ضربة قاصمة بمركز الجبهة الفرنسية .

وبعد أسبوع واحد طورت خلاله الدبابات الألمانية تقدمها إذا بها تصل إلى البحر عند ( آبقيل ) ، فأتمت بذلك ضرب الحصار حول الجيوش المتحالفة في الشمال التي لم تجد مفرًا من اللجوء إلى عملية إخلاء متعجلة في ( دنكرك ) .

وهكذا انتهت خطة القتال الألمانية التي عرفت باسم « الخطة الصفراء » بانتصار فاق كل الحدود .

والواقع أن التفكير في تنفيذ هذه الخطة إنما يرجع إلى أربعين عامًا إلى الوراء ، فلما تم تنفيذها كانت موضع تعليقات لا نهاية لها : فقد كثرت التساؤل : هل واضعها هو هتلر بنفسه ، أو أنه قد استعار أفكار أحد القادة اللامعين من قيادة أركان حرب الجيش الألماني ، هو الجنرال فون مانشتاين ؟ .

ومن حيث الواقع فإن « الخطة الصفراء » قد ظهرت إلى حيز الوجود يوم ٢٧ من سبتمبر ١٩٣٩ ، وهو اليوم نفسه الذي استسلمت فيه وارسو عاصمة بولندا ، ففي ذلك التاريخ استدعى هتلر إلى برلين قائد القوات البرية وهيئة أركان حربه ، وكانا الجنرالين براوشيتش وهالدر .

وبطريقته الحازمة المعتادة أبلغها نيته في الهجوم على الجبهة الغربية فور انتهاء تجميع الجيش الألماني ، وإعداد وحداته الكبرى ، وهو ما يجب أن يتم يوم ١٢ من نوفمبر على الأكثر . على

أن الجزالين اللذين كانا لا يزالان متأثرين بدكريات حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وكانا مقتنعين بقيمة الجيش الفرنسي ضاعفا من اعتراضاتها ، وقالوا إنها لا يعتقدان إمكان الحصول على نتيجة حاسمة في هذه الجبهة . ولكي يصرفا هتلر عن هذا المشروع فإنها راحا يلحان على نواحي النقص في الجيش الألماني ، بل أثارا القصور في بعض الوحدات الذي اتضح في بولندا . لكن هذه الاعتراضات كان لها أثر عكسي مخالف لما كان متوقعا . فقد انتفض هتلر غضبا ، وراح يندد بعجز القيادة العليا ، وأعلن أن قراره لا يمكن الرجوع فيه ، ووجه هجوما عنيفا على براوشيتش ، مما اضطره إلى الانسحاب منسحقا ، وقد كاد يفقد أعصابه . فعاد إلى مقر القيادة في (زوسين) ، حيث ظل عدة أيام عاجزا عن القيام بأي مجهود . وبعد خمسة عشر يوما من ذلك أقدم هتلر على خطوة جديدة : فقد ألقى في الرايخستاغ خطابا اقترح فيه تسوية سلمية لم تقبلها بريطانيا وفرنسا ، مما جعله يبعث إلى القيادة الألمانية العليا بنود أمره رقم ٦ الذي أكد فيه نيته على العمل قبل يوم ١٢ من نوفمبر ، ويقضى ذلك بقيام الجيش بهجوم ساحق عبر لوكسمبورج وبلجيكا وهولندا ، فيحثل مواقع من شأنها المضي في الحرب في أفضل الظروف ضد بريطانيا وفرنسا ، وطلب هتلر من جنرالاته أن يوافوه بحضه لذلك في خلال أسبوعين ، بدلا من ستة أسابيع .

وإذ اقتنع براوشيتش وهالدور بعدم جدوى معارضتها ، فإنها انصرفا إلى العمل ، وقدم ما يوم ١٩ من أكتوبر صيغة أولى لما سمي « الخطة الصفراء » ، التي أدخلت عليها بعض التعديلات . وأصبحت في مرحلة متطورة يوم ٢٩ . وعلى عكس ما يؤكد بصفة عامة فإن هذه الخطة ليست صورة طبق الأصل من خطة (شليفن) التي وضعت عام ١٩١٤ : ذلك أن هذه الخطة الأخيرة كان الهدف منها باستخدام جناح قوى متحرك من القوات الألمانية يقوم بعبور بلجيكا ، أن يزعم ميسرة الفرنسيين التي لم تكن تتجاوز نهر (سامبر) ، وفي حركة واسعة تمكن القوات الألمانية من الإحاطة بمنطقة باريس ، وتتيح لها تدمير وسحق الجيش الفرنسي الذي تراجع إلى الحدود مع سويسرا .

أما « الخطة الصفراء » التي أعدت عام ١٩٣٩ وفقاً لتوجيهات هتلر ، فإنها كانت تقدم هدفا يقل عن الهدف الأول كثيرا : فقد كانت ترمي إلى إلقاء القوات الفرنسية والبريطانية إلى ما وراء نهر (السم) ، وتأمين سيطرة الجيش الألماني على الساحل البلجيكي حتى شمال فرنسا عند (دنكرك) . وكان هدفها المباشر ضمان حماية إقليم الرور ، وتمكين السلاح الجوي الألماني من

الحصول على قواعد متميزة في الصراع الجوي ضد بريطانيا ، وجعل الجيش في وضع ملائم لاستمرار العمليات ضد فرنسا .

وعلى ذلك فإن الخطة لم تتضمن - على عكس خطة ١٩١٤ - أى معركة إبادة من شأنها اتخاذ قرار سريع . ويبدو أنهم اكتفوا فيها بإحداث صدمة على الجبهة .

\*\*\*

وقد اشترك الجانب الأكبر من الجيش الألماني بطبيعة الحال في العملية : أى فرقان ومائة فرقة منها : ٩ مدرعة ، و ٦ ميكانيكية . وبينما كان على مجموعة الجيوش ( ج ) التي يقودها فون ليب اتخاذ موقف الدفاع في مواجهة خط ( ماجينو ) وعلى طول نهر الراين ، كان الجهد الرئيس ملقى على عاتق مجموعة الجيوش ( ب ) التي يتولى قيادتها فون بوك . وعلى هذه المجموعة التي تتكون من ٤٣ فرقة وتضم أغلب الوحدات المدرعة أن تبدأ هجومها من عند نقطة واقعة شمالى لوكسمبورج في منطقة ( مايسرشت ) ، ثم تتقدم بعد ذلك في اتجاه شمال فرنسا عبر السهول البلجيكية .

أما مجموعة الجيوش ( ا ) التي يقودها فون رونشتت ولا تتجاوز ٢٢ فرقة ، فإنها توفر الحماية للجناح الأيسر لفون بوك . وبعد أن تجتاز لوكسمبورج والجزء البلجيكي من ( الأردين ) ، فإن عليها أن تمد جبهتها على خط يمتد من ( لوتجوى ) إلى ( لاون ) .

وقد أعدت القيادة الألمانية قوة احتياطية تضم ١٩ فرقة ، منها فرقان ميكانيكيتان . ويقول الجنرال كيتل في هذا الصدد : إن هتلر عندما أحاط علماً بهذه الخطة قال : « لقد انتعلم حذاء ( شليفن ) ! ولكننا إذا تركنا ذلك جانباً ، نجد أنه لم يبد ساعتها أى اعتراض ، وكل ما قام به بناء على ما طالب به السلاح الجوي الألماني الذي كان يخشى أن يستخدم السلاح الملكي البريطاني بعض المطارات الهولندية ، أنه قرر توسيع نطاق الهجوم بحيث يشمل كل هولندا .

غير أنه منذ اليوم التالي لتقديم الخطة الصفراء ، فسوف نرى أن هتلر أبدى تحفظات قدمها إلى القيادة العامة .

وفي داخل الجيش خرجت أولى الاعتراضات من جانب الجنرال فون مانشتاين رئيس الأركان وفون رونشتت : ففي مذكرة وجهها إلى رئيسه يوم ٣١ أكتوبر ، أشار إلى نقاط الضعف في الخطة فقال : « إن النجاح الأولي الذي لاشك سنحققه على بلجيكا وعلى القوات

المتحالفة التي سوف تهب لنجدتها أمر مقبول . إلا أن النصر العام لا يتوقف على هذا النجاح الابتدائي ، وإنما يتوقف على تدمير قوات العدو في مجموعها في القتال ، سواء في بلجيكا أو في شمال ( السوم ) .

كان الاعتراض قويا ، وبدا منه أن « الخطة الصفراء » لا تؤدي إلى شيء حاسم ، ولكن مجرد تهديد شمل القوات الفرنسية والبريطانية . والأمر الذي بعث على قلق مانشتاين ، كان حدوث هجوم مضاد . وهو يقول في ذلك : « يتعين في الوقت نفسه إحباط الهجوم المضاد الفرنسي الذي سيجيء حتماً عاجلاً أم عاجلاً في الاتجاه الجنوبي أو الجنوب الغربي » . وتلافى هذا الاحتمال فإن مانشتاين أدخل على الخطة تعديلات واسعة النطاق تضمنت في طياتها بذرة الخطة النهائية . وكانت هذه التعديلات تقضي بأن تقوم مجموعة الجيوش ( أ ) وهي التي يقودها رونشتت ويتولى مانشتاين منصب رئيس أركانها - بنقل مركز ثقل العملية كلها إلى الجناح الجنوبي . وبعد أن تتمركز جنوبي ( ليج ) ، يتعين مده إلى ما وراء نهر ( الموز ) عند ( نامور ) وعلى محور ( آراس - بولون ) ، بحيث تقطع عند ( السوم ) كل ما سوف يعامر العدو بدفعه من قوات إلى بلجيكا ، وليس دفعه إلى نهر السوم .

وإذ كان مانشتاين مقتنعاً تماماً بنظريته فإنه لم يكف بالمذكرة الأولى ، بل قدم أربع مذكرات أخرى في أيام ٢٦ ، ٣٠ نوفمبر ، وفي ٦ ، ١٨ من ديسمبر . وقد رفض فون براوشيتش وهالدر أخذ ما جاء فيها في الاعتبار ، ولم يوافقا إلا على القيام بالخطة الأصلية ، إذ اعتقدا أن الأمر مناورة من جانب فون رونشتت ، لكي يعهد إليه بالدور الأول في تنفيذ الخطة الصفراء بدلا من فون بوك .

صحيح أنه في ذلك التاريخ - أي في منتصف شهر ديسمبر - كانت الخطة الصفراء قد أدخلت عليها تعديلات هامة ؛ غير أنها لم تكن ترضى سوى المسئولين في مجموعة الجيوش ( أ ) ، وقد أعدت هذه التعديلات عقب تدخل هتلر شخصياً . والواقع أنه ابتداء من آخر أكتوبر ، وبينما كان مانشتاين يطلع فون رونشتت على ملاحظاته ، بدأ الفوهرر من ناحيته بوجه انتقاداته إلى الخطة الصفراء . وقد قال في ذلك للجنرال ( جودل ) ، رئيس العمليات ج : « لا بد من جهد عقلي جديد ؛ لأنه ضروري للخطة » .

• • •

وفي يوم ٩ من نوفمبر اتخذ أول إجراء هام : فقد قرر أن ينقل من مجموعة الجيوش ( ب )

إلى مجموعة الجيوش ( ١ ) الفيلق التاسع عشر مدرعات الذى يقوده جودريان ويشمل فرقتين من قوات الدبابات ، وفرقة ميكانيكية ، ولواءين من القوات الخاصة ، وكانت كلها تابعة لمجموعة الجيوش ( ب ) .

إن قوات جودريان هذه - وإن لم تنهأ لها بعد الأهمية الحاسمة التى لن تلبث طويلاً أن تحظى بها - كانت بداية للمأساة الفرنسية : ذلك أنها بعد أن عبرت ( الأردن ) أصبحت تشكل رأس جسر على نهر ( الموز ) عند سيدان ، وبذلك سهل عليها أن تتلقى الظروف الملائمة لمتابعة العمليات فى حالة هدم استطاعة الوحدات المدرعة فى مجموعة الجيوش ( ب ) التى يقودها فون بوك شق طريقها فى بلجيكا .

كان ذلك إذن هو الحل البديل ، ولكن للمرة الأولى - وبمبادرة من الفوهرر - فإن اسم ( سيدان ) ظهر فى خطة العمليات متصلاً باحتمال حدوث فجوة فى قلب الجبهة الفرنسية . وفى يوم ٢٠ من نوفمبر قطع هتلر شوطاً آخر : فبينما كان لا يزال على غير علم بما يقترحه مانشتاين ، فإنه أمر القيادة العامة بالتنويع بالقوة التى سوف ينتقل إليها مركز نقل الهجوم ، وهذه لم تعد ممثلة فى مجموعة جيوش فون بوك ؛ وإنما فى مجموعة جيوش رونشتت . فماسبب هذا التعديل الكبير ؟

لقد كان هذا السبب ببساطة هو استعدادات العدو فى ذلك الوقت التى بدت كأنها تضمن تحقيق أقصى نجاح لمجموعة جيوش رونشتت . والواقع أنه منذ شهر أكتوبر ، وقع حدث رئيسى فى تاريخ الحرب فى الغرب : فبفضل إدارة فك الرموز الشفرية التابعة للجيش الألمانى ، أمكن معرفة جميع الشفرات السرية التى تستخدمها القيادة الفرنسية . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الألمان يقرءون جميع الاتصالات بين وزارة الحربية ومجموعات الجيوش الفرنسية والسلطات الداخلية . حتى الاتصالات التى كانت تتم مع شمال أفريقيا وسوريا . . .

\*\*\*

وقد ترتبت على كشف أسرار الشفرة الفرنسية نتيجتان رئيسيتان :  
فقد أصبحت القيادة الألمانية تقف أولاً بأول على نواحي النقص فى تنظيم وتسليح القوات الفرنسية ، وهو الأمر الذى أزال الصورة المخيفة السابقة للعدو ، ودعمت الثقة لدى الألمان فى إمكان تنفيذ الهجوم فى الغرب . وكان فى ذلك ما أكد أحكام الفوهرر ورأيه عن فرنسا

وجيشها ، وهو ما كان يلقى معارضة من جنرالاته . ومرة أخرى استطاع ذلك « الأومباشي » النسوى أن يثبت لدى العسكريين المحترفين أنه يتمتع بقدرة على استقراء الأمور أكبر بكثير من قدراتهم .

وأخيراً فإنه عن طريق الاتصال اللاسلكي السري ، أمكن للألمان متابعة أى تطور يحدث في الإستراتيجية الفرنسية والبريطانية .

وابتداء من شهر أكتوبر كان الجنرال (جاملان) القائد العام للقوات الفرنسية والجنرال (جورج) قائد المسرح الشمالى الشرقى ، على استعداد للانتقال إلى ما وراء الجبهة الشمالية لنجدة الجيش البلجيكي . وذلك في حالة تكرار هجوم ألماني شبيه بهجوم عام ١٩١٤ . وكان هناك افتراض أول يقضى بدخول القوات الفرنسية بصورة محددة عند منطقة (ليسكو) يتيح ميزة إبعاد العدو عن الساحل البلجيكي ، وتأمين النشاط في المنطقة الصناعية التي تشمل (دينان وفالانسيان وليل) ؛ غير أن الجبهة التي كان يتعين الدفاع عنها في هذه الحالة كانت تتجاوز ٣٠٠ كيلو متر بدلاً من ٢٧٠ كيلو متر في حالة الارتكاز على الجبهة . وهكذا فإنه في يوم ٢٤ من أكتوبر فكر الجنرال (جورج) في نقل قواته إلى قلب بلجيكا على خط يقل عن ٢٤٠ كيلو متر ، ويمتد من (لوفان) إلى (نامور) . وكان ذلك ما أطلقت عليه القيادة الفرنسية اسم «حل ديل» الذي تمت الموافقة عليه يوم ١٤ من نوفمبر .

ومنذ ذلك الحين وضع جيداً أصل التعديل الكبير الذي أدخله هتلر على الخطة الصفراء : فلو أن الجانب الأكبر من قوات الحلفاء دخلت بغزارة إلى بلجيكا لأدى تنفيذ «الخطة الصفراء» التي تعتمد أساساً على مجموعة الجيوش (ب) إلى صدام مواجهة دام غير معروف النتائج . وقد كان الدفع بمركز نقل الحلفاء نحو الشمال هو الذي حتم على نحو ما تعديل مركز الثقل الألماني . وتوجيه الضربة على نهر (الموز) عند سيدان يمكن لمجموعة الجيوش (ب) أن تعثر على نقطة الضعف في الدرع الفرنسي البريطاني .

وفضلاً عن ذلك فإن خطر وقوع هجوم مضاد يزول . والواقع أنه في بداية نوفمبر عملت القيادة الفرنسية على أن تحرم نفسها من احتياطها الإستراتيجي ، وذلك بأن نقلت الجيش السابع الذي يقوده الجنرال (جيرو) من منطقة (ريمز) إلى قطاع ليل - دنكرك .

وهكذا عرف الألمان أن كتلة قوات الصدام لدى الحلفاء قد أعدت انتظاراً لوقوع هجوم ألماني على بلجيكا .

من هنا فإن الوقوف على السر الفرنسي . ومعرفة الاستعدادات الأخيرة للحلفاء . هما اللذان أديا بهتري إلى وضع أسس الصيغة النهائية للخطة الصفراء التي أصبحت بالفعل تنطوي على بداية مأساة الغرب . التي وقعت في مايو ١٩٤٠ .

غير أن ظروفًا خارجية هي التي ساعدت على هذا التطوير في الخطة الصفراء : ذلك أنه نتيجة للأحوال الجوية غير الملائمة التي لا تسمح باستخدام سلاح الطيران الألماني استخداماً كثيفاً . اضضروا إلى العدول عن العملية التي كان مقرراً لها يوم ١٢ من نوفمبر . ولو أنها وقعت في ذلك اليوم لكانت المجابية الرئيسية قد جرت في بنجيكا . حيث كان الجنرال جاملان ينتظر . وربما كان من المحتمل أن ينهزم الحلفاء في هذه المجابية . ولكن هذه الهزيمة ما كانت لتحدث في ستة أسابيع .

ولهذه الأسباب نفسها ، فإن الهجوم قد أُلغى ثلاث عشر مرة متتالية حتى يوم ١٠ من يناير . وفي هذا اليوم أعلنت التوقعات الجوية وجود منطقة ذات ضغط عال فوق أوروبا تمتد من الشمال إلى الغرب ، فأصدر هتلر الأمر ببدء الهجوم يوم ١٧ منه عند الفجر .

وفي هذا الوقت لم تكن التعديلات التي قررها هتلر يوم ٢٠ من نوفمبر قد نفذت بعد ، وكان لا يزال على فون بوك بالفرق الخمسين ومنها سبع مدرعة ، أن يقوم بالمجهود الأكبر . وظلت مهمة فون رونشتت هي حماية مسيرة العملية . ولكن مع احتمال مهاجمتها للميمنة والمؤخرة الفرنسية البريطانية ، وذلك إذا لقيت مجموعة الجيوش (ب) مقاومة أعنف مما ينتظر ، ولم يكن تحت إمرته سوى ٢٢ فرقة : اثنتان منها مدرعتان . مع احتمال تعزيز هذه القوة بقوات احتياطية قدرت بأربع عشرة فرقة ، منها فرقة واحدة مدرعة . واثنتان ميكانيكيتان ، إلا أن هذه الخطة لم يقدر لها أن تنفذ قط ؛ إذ إن الأحوال الجوية عادت لتتدهور من جديد ابتداء من ١٣ من يناير ؛ مما تعين معه تأجيل العملية إلى يوم ٢٠ . ثم أجلت بعد ذلك إلى الحريف . بيد أن حدثاً آخر كان له وزنه في القرار الحاسم بالإلغاء : ففي يوم ١٠ من يناير بالذات فقدت طائرة مواصلات ألمانية في الضباب ، فاضطرت إلى الهبوط في الأراضي البلجيكية بالقرب من (ميشلان - سور - موز) ، ولم يتمكن الميجور راينبرجر الذي كانت تقله وحمل معه امرأة عاملاً بعمليات اللواء الجوي الألماني الثاني الذي تتبعه الفرقة السابعة مظلات من إتلاف كل الوثائق التي معه .

وقد نقلت هذه الوثائق إلى الجنرال فان أوفترابتين القائد العام للجيش البلجيكي الذي

أبلغ محتوياتها القيادة الفرنسية ، ولو أن هذه نظرت إليها على أنها خدعة ألمانية بعثت بها في صورة وثائق تهبط من السماء ! غير أن ما تبقى سليماً من تلك الوثائق كان كافياً في ذاته لتوقع حدوث هجوم كبير عبر بلجيكا مع الاستيلاء على حصون (لييج) والجسور المقامة على نهر (الموز) في منطقة دينانت على أيدي الفرقة السابعة الألمانية مظلات . حتى تاريخ العملية كان مسجلاً بها ، وهو يوم ١٧ من يناير .

وقد قال فون كيتل فيما بعد : إن حادث الميجور راينبرجر جعل هتلر ينفجر في إحدى غضباته العنيفة ، فراح يرمى أركان الحرب بالخيانة ، ولما لم يكن يعرف : هل الطيار قد وجد من الوقت ماسح له بإتلاف الوثائق أولاً ، فإنه رأى الأخذ بأسوأ الافتراضات ، وهو أن الخطة قد انكشفت ، وعلى ذلك فإن تعديلات فورية أدخلت عليها . ومن ذلك أن تدخل القوات المحمولة جواً سوف يقتصر أساساً على المناطق القريبة من السهل الهولندي ، وعلى حصن (إين - إيمائيل) .

ولتجنب أخطار إفضاء ذلك ، فإن عمليات حشد القوات لن تحدث إلا في يوم الهجوم أو اليوم الذي قبله مباشرة . على أن الأمر الأكثر أهمية هو أن حادث الطائرة قد أدى إلى إعادة النظر في «الخطة الصفراء» التي اتخذت خلال بضعة أسابيع سببها النهائية ، وذلك بمجابهة أفكار هتلر وآراء مانشتاين :

ذلك أن فون مانشتاين قد عاود يوم ١٢ من يناير حملته بمذكرة قدمها إلى فون رونشتت قال فيها : إن تعزيز مجموعة الجيوش (١) بمدركات فون جودريان غير كاف ، واقترح أن تضم المجموعة (١) جيوشاً ثلاثة ؛ اثنان منها يؤمنان ميسرة الهجوم حتى نهر (الواز) وبحولان دون وقوع أى هجوم فرنسي مضاد ، على حين يقوم الجيش الثالث تعززه عناصر مدرعة بتأمين عبور نهر (الموز) فيما بين دينانت وفوماى ، ثم يتقدم نحو (سان كتنان) ، لشل حركة ميمنة القوات المعادية المرابطة على نهر (السوم) . ثم أضاف مانشتاين قوله : «وعند ذلك فقط سوف تؤدي العملية إلى نصرهائى على الجيش الفرنسى» .

وهكذا تحددت فكرة المناورة بمزيد من القوة ، والوضوح ، كما هي الحال في مشروع هتلر : بأن تقوم مجموعة الجيوش (١) بتحطيم قلب الجبهة الفرنسية ، وإيقاع القوات المتحالفة في الشرك المنصوب لها في بلجيكا . وسيكون على هذه المجموعة القيام بدور المطرقة ، أما المجموعة (ب) فتقوم بدور السندان .

ومرة أخرى رفض كل من فون براوشيتش هالدنر رفع هذه المذكرة إلى هيئة أركان الحرب .

غير أن مشروع فون مانشتاين قد طرح يومى ١٤ . ٧ من فبراير خلال مناورات تدريبية جرت بحضور الجنرال هالدنر ، وكان نجاحها في اقتحام لمركز قلب العدو وميمته قد اصطدم هو وعبور نهر (الموز) ، وهو العائق الكبير المضاد للدبابات . وقال جودريان : إن هذا العائق يمكن اجتيازه في خمسة أيام أو أربعة ، ولكن هالدنر قرر أن هذا التقدير غير معقول ، لأنه لا بد من تسعة أيام أو عشرة بعد الهجوم لتحقيق ذلك .

وفي الوقت الذى خيل فيه أن هذه القضية قد دفت ، إذا بها تطفو على السطح وتفرض نفسها نهائياً نتيجة لمصادفة بحتة : ففي أواخر يناير كلف هتلر ياوره الخاص الكولونل (شمونت) بمهمة تفتيشية على الجبهة ، والتقى شمونت يوم ٣٠ في كابلانز وفون مانشتاين الذى حدثه بطبيعة الحال عن فكرته ، فافتتن بها الكولونل وعاد إلى برلين متأثراً بها ، لأنه كما روى ضابط يدعى كابتن (إنجل) رأى فيها صيغة محددة لما يجرى في ذهن الفوهرر .

وفي البداية لم يظهر ما يدل على أن هذا اللقاء سوف تكون له نتائج تالية . والواقع أن فون مانشتاين نقل يوم ٨ من فبراير وفقاً لحركة انتقالات أعدت منذ الخريف السابق من كابلانز إلى (شتاتن) : ليتولى قيادة الفيالق الثامن والثلاثين ، وكان هذا النقل في الحقيقة بمثابة محاولة مقنعة لإبعاده .

فهل نقل (شمونت) إلى هتلر حديثه مع فون مانشتاين ؟ على أى حال فإن مما ورد في يوميات (جودل) ، أن هتلر قرر يوم ١٣ من فبراير تعزيز القوات الألمانية المرابطة في مواجهة (سيدان) . وقد قال في ذلك : إن العدو لا يتوقع أن يتلقى الصدمة الرئيسية في هذه المنطقة . وهكذا فإنه أمر بأن تؤخذ من مجموعة الجيوش (ب) فرقتان مدرعتان تضافان إلى مجموعة فون رونشتت الذى يحصل فوقها على فرقة دبابات تقطع من الاحتياطى . وفي الوقت الذى تجسدت فيه لديه فكرة الاختراق الكثيف على نهر (الموز) ، التقي هو وفون مانشتاين . وبينما كان الفوهرر يقيم حفل غداء يوم ١٧ من فبراير استقبل فيه قادة الألوية الجدد ، إذا به يحتجز فون مانشتاين في مكتبه ، وفي سرعة أذهلت مانشتاين الذى كان لا يعلم شيئاً عن أن فكرة مشروع (سيدان) تدور في رأس هتلر منذ عدة أسابيع ، راح يخوض في الآراء التى أبداها منذ شهر عن مجموعة الجيوش (١) ، وبوافقه عليها موافقة كاملة .

لقد كان هذا اللقاء - بالنسبة للفوهرر - بمثابة نقطة التنوير : فلقد وجد أخيراً جزئياً يتفق تمام الاتفاق مع أفكاره . وقد أوضح مشروع مانشتاين تمام الإيضاح فكرة المناورة التي توصل إليها هو منذ نوفمبر ١٩٣٩ ، بغير أن يستطيع إعطاءها شكلها العلمى .  
وقال مانشتاين : إن القرار لن يكون غرب نهر (الموز) ، وإنما على النهر نفسه فيما بين (سيدان) و(شارلويل) .

ومنذ ذلك الوقت اتخذت الخطة الصفراء سمتها النهائية ، ثم جاءت توجيهات جديدة من هتلر أدخلت على مشروع مانشتاين ضاعفت من فرص نجاحه . وقد سار الفوهرر حتى النهاية في فكرة المناورة ، فأضنى عليها قوة وأناقة ، كما كان يفعل نابليون .  
وهدف الخطة الصفراء هو وضع أسس التدمير الكامل لمجموع القوات العسكرية للعدو ، والضربة الرئيسية من الهجوم سوف توجه عبر كل من بلجيكا ولكسمبورج إلى الجنوب من خط يمتد من لياج إلى شارلوا .

وأصدر هتلر قراراً بأن تقوم مجموعة الجيوش (ب) التي يقودها فون بوك بالهجوم في بلجيكا وجنوب هولندا . وهذا الهجوم الثانوى في تفكيره ، يتعين أن يبدو كأنه الهجوم الرئيسى على العدو بحيث يستقطب كل اهتمامه خلال الأيام الأولى ، وبذلك يجتذب الجزء الأكبر من القوات الفرنسية والبريطانية في بلجيكا ، ويبسئ الحماية لمحنة المجموعة (أ) التي يقودها فون رونشتت الذى عليه القيام بالمجهود الرئيسى .

• • •

وجرى تقسيم القوات التي تشترك في الخطة الصفراء ، ولكي تقوم مجموعة الجيوش التي يقودها فون بوك بدور (الطعم) فإنها خفضت إلى ٢٩ فرقة : منها ثلاث مدرعة ، أما المجموعة (أ) التي يقودها فون رونشتت فإنها حظيت بنصيب الأسد ، إذ ضمت ٤٥ فرقة : منها ٧ فرق دبابات ، وكانت مهمتها اجتياز (الأردنين) . والسير بجذاء نهر (الموز) ثم عبوره فيما بين (دينانت) و(سيدان) ، والانطلاق بعد ذلك في اتجاه (سان كيتان) وما بعدها .

ولقد شعر فون براوشيتش وهالدربنوع من الدهول عندما تناول هتلر قلماً أخضر اللون . ورسم به محوراً للزحف أدى مباشرة إلى (آبفيل) ثم إلى البحر . وكان معنى ذلك أن رأس الحربة سوف يشكلها الفيلق التاسع عشر الذى يقوده (جودريان) الذى كلف بعبور نهر (الموز) عند سيدان .

إن هتلر هو الذى أعد بنفسه عمليات صرف الأنتظار التى من شأنها تحويل اهتمام الفرنسيين عن هذه المنطقة ، ومن ذلك حدوث إنزال جوى فى هولندا ، وعملية هبوط مظليين على قناة ألبرت ، وعلى حصن إيبين إيمائيل) ؛ بل إنه حتم عدم الإشارة فى البيانات الأولى إلى التقدم نحو دينانت وسيدان .

وحازت الخطة الصفراء فى شكلها الجديد موافقة عامة . وراح الجميع يعملون فى إعدادها النهائى ، وقد اشترك هتلر فى وضع تفاصيل العملية المحمولة جواً ضد (إيبين إيمائيل) . وبناء على تدخله ، تقرر أن تنقل الدبابات الثقيلة من طرازى (مارك ٣) و(مارك ٤) إلى مجموعة الجيوش (١) ، ويكتفى بتزويد مجموعة فون بوك بالمدركات الخفيفة . على أنه كان لا يزال هناك سؤالان لا يجدان الإجابة عليهما : الأول هو : هل ينوى العدو دخول بلجيكا ؟

لقد كانت الأنباء التى حصلت عليها المخابرات الألمانية تؤكد ذلك . ولكن المسألة ربما قد تتجمل فى آخر لحظة لأسباب سياسية . والذى حدث فعلاً أنها كانت موضع دراسة مفصلة يوم ٩ من أبريل ، فى لجنة الحرب الفرنسية البريطانية . غير أن السؤال العصيب كان يدور حول الوقت الذى يستغرقه عبور نهر (الموز) : فلقد وعد جودريان بإتمام هذا العبور فى اليوم الخامس ، ثم أكدته خلال مناورة جرت يوم ١٥ من مارس بحضور هتلر . وقد قال فى شرح ذلك : «لقد بينت فى اختصار أن القوات المدرعة سوف تتقدم فى ثلاثة طوابير عبر لكسمبورج وجنوب بلجيكا ، وأنتى أنتوى بذلك الوصول إلى تحصينات الحدود البلجيكية واقتحامها إن أمكن فى اليوم الأول ، وفى اليوم الثانى أستمى فى الزحف إلى الأمام إلى ما بعد (نوف شاتل) ، وفى اليوم الثالث أجتاز نهر (سيموا) عند بويون) . ثم أصل إلى نهر (الموز) فى اليوم الرابع ، وفى اليوم الخامس أقوم بالهجوم لعبور النهر...» .

وعند ذلك لم يستطع هتلر أن يمنع نفسه من التساؤل : «وبعد ذلك . . فما الذى تنوى عمله؟» فأجاب جودريان : «سوف أستمى فى اليوم التالى مباشرة فى التقدم غرباً إذا لم يكن هناك أمر بعكس ذلك : إن على القيادة العليا أن تقرر ما إذا كان يتعين أن أتجه صوب (آميان) أو (باريس)؟ وفى رأيى فإن أفضل وجهة هى (آميان) وبحر المانش» .

وصدق هتلر على ذلك . لكن الجنرال بوش قائد الجيش السادس عشر ، أعرب عن

مخاوف هيئة الأركان إذ قال : « لا أعتقد أنك ستصل إلى الضفة الأخرى من نهر (الموز) .  
وفي غضب أجابه جودريان : « إن ذلك ما لا يطلب منك ! »

• • •

وهكذا فإنه حتى صباح يوم ١٠ من مايو لم تكن الخطة الصفراء سوى شيء غير مستقر ؛  
ذلك أن كل شيء كان متوقفاً على ردود الفعل الإستراتيجية والتكتيكية للعدو : فهل من أجل  
تقصير جبهته سيدخل قواته إلى بلجيكا ، فيسقط بذلك في الشرك ؟  
وهل سوف تستسلم قوات مشاته التي جعلها ترابط خلف نهر (الموز) منذ تسعة أشهر أمام  
القوات الألمانية المدعمة بالدبابات والطائرات ؟

الواقع أن إله الحرب كان في شهر مايو ١٩٤٠ الرائع ، يقف إلى جانب قوات الرايخ  
الثالث . فلقد جرى كل شيء ، في سهولة مذهلة ، وتم تنفيذ الخطة الصفراء على أكمل  
وجه ، وفي دقة لم يكن هتلر ولا مانشتاين يتوقعانها .

ففي يوم ١٠ من مايو ١٩٤٠ دخلت القوات الفرنسية والبريطانية بغزارة إلى بلجيكا ، مما  
جعل دموع الفرع تطفر من عيني هتلر ، وبعد ذلك فإنه ليس في اليوم الخامس ولا الرابع ،  
وإنما في اليوم الثالث فقط اجتازت الدروع الألمانية نهر (الموز) قبل أن تتطلق نحو الغرب بغير  
أن تلقى أى مقاومة جديرة بهذا الاسم .

ففي أقل من أربعة أيام . انفتحت ثغرة عظيمة عرضها ٧٥ كيلو متر في قلب الجبهة  
الفرنسية ، وفي يوم ١٦ من مايو كان روميل بفرقة مدرعاته السابعة بالفعل في (أفزية) ،  
ووصل جودريان إلى (مونكونيه) على بعد أقل بمئتين كيلو متر من (لاون) ، فتبددت بذلك  
ثمانى فرق فرنسية كاملة .

وساد في قيادة هتلر العامة في (مونستريرف) الحماس والقلق معاً : فقد كانت هناك فكرة  
تسيطر على النفوس تدور حول الوقت الذي سيقع فيه الهجوم الفرنسي المضاد والمكان الذي  
سيصل إليه ، وكان المتوقع أن يأتي هذا الهجوم من منطقة (ريمز- لاون) باستخدام الفرق التي  
تجلب من خط ماجينو ، ولذلك بادر الجنرال فون كليست يوم ١٦ من مايو- وهو قائد  
بمجموعة الفرق المدرعة في قوات فون رونشتت - بأن أصدر أمراً إلى قوات جودريان بالتروقف ،  
ثم عاد وصرح لها بالقيام بعمليات الاستكشاف ، أما هتلر فإنه كان ناثراً الأعصاب إذ خيل إليه  
أن هذا التقدم الخاطف سوف ينتهي بكارثة .

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث : فالقيادة الفرنسية قد اكتفت عملاً بالمفاهيم الإستراتيجية البالية ، بإقامة ستار رقيق من القوات على طول نهري (ليزن) و(السوم) ، واحتفظت بأربعين فرقة في خط ماجينو في مواجهة الفرق الألمانية الثانية من مجموعة جيوش الجبال فون ليب التي كانت مهمتها الوحيدة بالذات هي استبقاء الفرنسيين في مواقعهم .

ولم يكن هناك من شيء يبطل من زحف الدبابات الألمانية : فوصل جودريان يوم ١٨ من مايو إلى (سان كيتان) ، وبعد أن عبرت (آميان) بلغت يوم ٢٠ (آبيل) واقتحمها ، وعند غروب شمس هذا اليوم وصلت إلى البحر .

ووقعت قوات الحلفاء في الشمال في الحصار ، وفي الأيام التالية استمر الزحف بدون مقاومة إلى (بولوني) و(كاليه) اللتين تم احتلالهما يوم ٢٤ من مايو ، ثم أشرفت القوات المدرعة على (دنكرك) .

وعند ذلك تسمرت في أماكنها بموجب أمر حاسم من هتلر .

• • •

لقد كان هذا الأمر - ومعه عبقرية الخطة الصفراء - موضع نقاش لا ينتهي عقب انتهاء الحرب . وتبعاً لأقوال ترددت ولكنها لا تثبت للفحص ، فإن الفوهرر بإصداره هذا الأمر إنما كان يريد القيام ببادرة طيبة تجاه بريطانيا .

فهو إذ يترك الباب مفتوحاً أمام خروج الجيش البريطاني من هذا الشرك ، كان يسعى لاكتساب رضا الرأي العام والحكومة البريطانيتين بغية الوصول إلى تسوية سلمية في الغرب . وهناك رواية أخرى تقول : إن جورج قد ناشد هتلر ، لكي يترك سلاح الطيران الألماني شرف توجيه الضربة القاضية إلى جيوش الحلفاء .

لكن الأمور في الواقع مضت بطريقة أخرى : فقد اتخذ قرار إيقاف الدبابات الألمانية أمام (دنكرك) يوم ٢٤ من مايو ، الذي اتخذته هو فون رونشت تحت تأثير من فون كلوجه قائد الجيش الرابع ، على زعم أن فرق المشاة التابعة لمجموعة الجيوش (١) المرتبطة بجيوش فون بوك سوف تتم ضرب الحصار ، ومن ثم تدمر قوات الحلفاء .

وكان هذا الإجراء سيئاً بجميع وضم صفوف مدرعات مجموعتي الجيوش في شمال فرنسا تمهيداً للمرحلة الثانية من المعركة ، وهي عملية (روت) التي تقضى بالاتجاه نحو الجنوب . أما هتلر فإنه لم يفعل إلا أن صدق على قرار فون رونشت ، وكان ذلك خلال زيارة قام بها فجأة



الجرالات جودريان وضباط أركان حربه :  
وعما قاله : « إن فظاعة البرد في روسيا قد كلفت القوات الألمانية من الرجال . ضعف من وقعوا ضحايا لتيران العدو .  
وكل من زار المستشفيات التي امتلأت بالرجال الذين كجمدت أطرافهم . يعرف ما الذي يعنيه ذلك » .



الجنرالان ديتريش وهيملر من  
قوات العاصفة الألمانية. كانا على  
عكس الجنرالات التقليديين  
البروسيين، يريان أن الإخلاص  
لمنظرة هو الأصل في كل شيء.

وقد أطلق سراجه عام ١٩٥٥ ،  
ثم سجن ١٨ شهراً أخرى لأنه  
اشترك قبل ٢٣ عاماً في عملية  
(ليلة السكاكين الطويلة). ويبدو  
هنا إلى اليسار عام ١٩٥٩ خلال  
احتفال للمحاربين الألمان  
القدماء.

يوم ٢٤ من مايو للقيادة العامة لمجموعة الجيوش (١) في (شارلفيل) ، حيث كالم المديح لفون رونشتت وأركان حربه .

على أن الأمر الصادر في ٢٤ من مايو كان لا بد أن يثير عاصفة في هيئة الأركان العامة ، فراح براوشيتش يوجه اللوم إلى هتلر على أنه قد اعترض المناورة التي يجري تنفيذها ، وكان من شأنها سحق قوات الحلفاء التي استطقت عليها كباشة هائلة أحد طرفيها جيوش فون بوك التي تقوم بدور السندان ، والقوات المدرعة التي ستحول دون وصول العدو إلى الساحل .

وإذ أدرك هتلر أنه وافق على قرار خاطئ ، فإنه سحب موافقته في اليوم التالي ، وأطلق حرية التصرف للقوات المدرعة ، ولكن الوقت كان قد فات ؛ لأن الإنجليز انتهوا فرصة هذا التوقف ، فاحتلوا أطراف (دنكرك) ودعموها دعماً قوياً ، فأمنوا بذلك جلاء قوات بلغ عددها ٣٣٨.٠٠٠ رجل، منهم ١١٣.٠٠٠ فرنسي .

فهل لعب قرار ٢٤ من مايو التمس دوراً حاسماً في مصير الحرب ؟ وهل كان يمكن لإيقاع جميع أفراد الحملة البريطانية في الأسر ، أن يؤدي إلى سقوط بريطانيا ؟

ومع فداحة الخطأ الذي وقع فيه الألمان الذين أضاعوا هذه الفرصة الثمينة ، فإنه ما من حجة حربية تؤيد مثل هذا الافتراض : ذلك أنه في عام ١٩٤٠ كانت البحرية والطيران هما اللذان أنقذا بريطانيا من الغزو . وما كان لاعتقال مائتي ألف بريطاني في شمالي فرنسا بقادر إلا على أن يحدث جرحاً في الكرامة البريطانية ، وفي هذه النقطة بالذات يتبدى الضعف الوحيد في «الخطة الصفراء» .

لقد كان لهذه الخطة طابع مقصور على القارة ، فما كان يمكن أن يحل إلا جزئياً المشكلة في الغرب . وما إن انهار الجيش الفرنسي ، حتى وجد الرايخ الثالث نفسه وجهاً لوجه أمام بريطانيا .

## الفصل الثلاثون

### موسكو . . لا تراجع على الإطلاق

لقد كان الفضل الذي انتهى إليه الألمان أمام موسكو في شهر ديسمبر ١٩٤١ نقطة تحول في العلاقات بين أدولف هتلر وبين جنralاته ، بل في سلوك القوهرر التكتيكي والإستراتيجي بوصفه القائد الأعلى للقوات الألمانية المسلحة .  
ومن المعروف أن هتلر الذي كان معنياً أشد العناية ، ومهتماً أكبر ما يكون الاهتمام بالاستيلاء على لسنجراد ، وبصفة خاصة بغزو مدينة كييف ، ووضع يده على أوكرانيا الثرية ، عمل على تأجيل الزحف على موسكو ، وهو الزحف الذي كانت تقوم به مجموعة جيوش الوسط التي كان يتولى قيادتها المارشال فون بوك .  
وقد كان هذا التأجيل على غير موافقة من القائد العام فون براوشيتش ، وكذلك رئيس الأركان الجنرال هالدور . وفون بوك نفسه ، فضلاً عن اثنين من قادة القوات المدرعة هما هوث وجودريان .

وفيما بعد ، قال هالدور : إنه لو قدر للقوات الألمانية أن تتجه في زحفها رأساً إلى موسكو - وكان في ذلك الهزيمة الحاسمة للروس . لكن هتلر لم يصدر أمره إلى فون بوك لاستئناف تقدمه إلا يوم ٢ من أكتوبر بعد توقف استمر شهرين ، وهو توقف كان في الحقيقة قاتلاً بالنسبة لألمانيا : فلقد امتنعت موسكو على الجيش الألماني ، ومع ذلك فإن القوهرر الذي لم يساوره الشك قط فيما يتعلق بالمستقبل وفيما يتعلق بكفائاته الخاصة ، راح يبحث في هذه الهزيمة عن اتهامات يوجهها إلى جنralاته ، ويتلمس أسباباً يرجعها إلى عدم تقهيم به .

• • •

وعندما تساقط الجليد للمرة الأولى في عام ١٩٤١ ، فغطى جبهة القتال المترامية الأطراف من عند نهر الفولجا حتى أوكرانيا ، فإن الجيش الألماني الذي يدين بالولاء لهتلر وجد نفسه فجأة

- بعد ثلاثة أشهر من الانتصارات التي لم تنقطع ، وقد تجمدت أطرافه تحت زحمة الرياح الثلجية ، فلم يعد كما قال الجنرال فريتس بايرلاين الذي أصبح فيما بعد رئيساً لأركان حرب روميل إلا شبحاً لآلة حربية بشعة تتقدم بسرعة من يسير على قدميه !

كان ذلك أولى النتائج القاتلة لتأخير تنفيذ خطة «برباروسا» أو «ذو اللحية الحمراء» التي وضعت أساساً لغزو روسيا السوفيتية ، وبدئى في تنفيذها ليلة ٢٢ من يونية السابق .

فقد صدر قرار الهجوم في الشرق يوم الأحد ٢٢ من يونية ١٩٤١ ، وهو يوافق ذكرى هجوم نابليون على روسيا عام ١٨١٢ ، ولم يكن اختيار هذا الموعد راجعاً لهتلر الذي كان منذ عام ١٩٤٠ قد حدد له يوم ١٥ من مايو ، لكي تنتهى العمليات في شهر أغسطس قبل هطول أمطار الخريف وبعجاء الشتاء الروسى .

غير أنه بعد الهزائم التي حاقت بموسوليني في اليونان ، اضطر الجيش الألماني أن يهب لنجدة الحليف الإيطالى ، كما فعل من قبل في أفريقيا ، فهاجم يوغوسلافيا ، وزحف عبر البلقان ، وفي يوم ٢٧ من مارس اتخذ هتلر قراره ، ألا وهو تأجيل عملية «ذو اللحية الحمراء» لمدة أربع أسابيع أى إلى ١٥ من يونية .

وفي اليوم السابع عشر من هذا الشهر كان ثلاثة ملايين رجل (١٤٩ فرقة منها ١٩ مدرعة و١٧ ميكانيكية) يحتشدون عند الحدود الألمانية السوفيتية ، ولم يعودوا يتظرون سوى إشارة البدء التي جاءت في ساعة متأخرة من مساء السبت ٢١ من يونية ؛ لكي يبدأ الغزو مع فجر اليوم التالى .

وخلال ثلاثة أشهر ، وتحته الضربات القاصمة التي أنزلتها القوات المدرعة التي يقودها جودريان ، وهوث ، وإينهارت ، وفون كليست - سقطت مدينتا كييف وسمولنسك ، واقتحمت أوديسا ، واحتلت جوميل ، ووطئ الجنود الألمان بأقدامهم أوكرانيا وجاسوا خلالها ، فأحرقوا محصولاتها ، ودمروا مخازن غلالها ، وأغرقتوا مناجمها ، وهدموا محطات توليد الكهرباء المائية فيها ، وهى التى كان نظام الحكم السوفيتى يفخر بها .

وجرى كذلك احتلال ليتوانيا وإستونيا ، واقتربت القوات الهتلرية من خليج فنلندا ومدينة (بيترهوف) ، وهى المقر القديم للقيصرة جنوى كرونستات ، وأصبحوا يهددون لسنجراد ، المدينة المقدسة لثورة أكتوبر .

\*\*\*

على أنه كانت هناك حقيقة واقعة : هي أنه كلما مرت الأسابيع ازداد الشعور بالمتطلبات  
المأساوية لهذا الصراع ضد الزمن : ذلك أن التأخير الذي حدث في البداية لأكثر من شهر ،  
بالنسبة لتوقعات الخطط التي وضعتها هيئة أركان الحرب ، لم يمكن تعويضه .

وفي الغرب كان السلام مع بريطانيا الذي قبل إنهم واصلون إليه حتماً ، لا يزال بعيداً  
تماماً ، وعند الناحية القسوى من أوروبا ، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من برلين ، بدأ يطلق  
على غزو الاتحاد السوفيتي اسم « معركة روسيا » و« الجبهة الشرقية » .

وكلما تقدمت الجيوش الجرارة المتحصرة وسط معدات الغزو متجهة نحو موسكو أخذت  
تلث وتبديد قواها من طول الطريق ، ليس من ثقل الخسائر في أرواح أفرادها الذين لم يكن  
قد سقط منهم منذ سبتمبر ١٩٣٩ سوى ١٥٠ ٠٠٠ قتيل ؛ وإنما من جراء هذا السباق الذي لا  
يزال عليها أن تقطع فيه آلاف الكيلومترات .

إن ذلك الفضاء الروسي البربرى العملاق الذي يمتص أطنان الوقود ، كان يتلف محركات  
الدبابات ، ويستهلك عجلات العربات ، ويضني المقاتلين . وعلى حين فجأة أصبحت  
الشمس في برودة الرصاص ، وذلك الغبار الذي يعمي العيون وهب من السهول ، إذا به  
يتوقف ، ويترك مكانه لأيام صافية ، وإذا بالليل يسرع في الهبوط ، ويتأخر النهار في الطلوع !  
وكان فريتس بايرلاين يقف كل مساء على رأس فيلقه المدرع التاسع والثلاثين ، ويتطلع في  
رهبة إلى تراكم السحب السوداء وهي تجرى قادمة من الشرق ، ثم تغطي صفحة السماء .  
وتتراوح هذه السحب الثقيلة أمام لفحات قاسية من الرياح الباردة ، ثم بدأت في النصف  
الأول من شهر سبتمبر أمطار غزيرة تنهركاها سيول لا تنقطع . وعند ذلك تغير كل شيء .  
فقد كانت الدبابات الثقيلة من طراز ( مارك ٣ ) و ( مارك ٤ ) تنسحب من المعارك ؛  
لكي تنتزع من الطين عربات المشاة ، وسيارات الاستطلاع ، والدراجات البخارية ، وعربات  
الإسعاف ؛ إذ كان قد حل موسم الوحل اللزج الذي يفوق فيه كل شيء ، في هذه البلاد  
الواسعة التي لا طرق فيها .

وحتى أولئك الذين لم يكونوا يعرفون روسيا إلا عن طريق السماع أو قراءة قصص تولستوى  
وتورجنيف - فإنهم سواء كانوا من الجنرالات أو من الجنود البسطاء - بدءوا يستشعرون ما لم  
يزل في انتظارهم ! وقد ترك الجنرال جونتر بلومنتريت قائد الجيش الرابع وراءه مذكرات قال  
فيها : « لقد كان المارشال فون كلوجه يضطر - عندما يذهب ليلى نظرة على الخرائط - أن

ينحوض إلى ركبتيه في الوحل الذي غطى المسافة الصغيرة التي تفصل غرفته عن مكتبه . وقد كان يحمل في يده بصفة دائمة كتاباً لا يتركه أبداً ، هو كتاب «يوميات كولانكور» . وقد أصبحت هذه الحقيقة ملموسة في فجر يوم الثلاثاء الموافق ٧ من أكتوبر : ذلك أنه طوال تلك الليلة كانت هبات الرياح الباردة كالثلج تكسح الأراضي الفضاء التي لا حدود لها ، فلما طلع النهار رأى المسئولون عن القطاع مالم يعد يعتبر مفاجأة منذ وقت طويل بالنسبة للجنود أو للحراس في المواقع المتقدمة : فقد كان هناك بساط من الثلوج البيضاء يغطي كل أرض المعركة ، على حين هبطت حرارة الجو هبوطاً شديداً . وفي نفس ذلك اليوم السابع من أكتوبر ، تهباً مارشال في الجيش الألماني تجردت كفتاه من علامات رتبته ، وبدا طويل القامة رشيقها ، وأطل من وجهه أنف مستطيل ، تهباً لتنفيذ الأوامر التي تلقاها من رئيسه المباشر في القيادة العليا في (راستنبورج) ، هو فالتر فون براوشيتش القائد العام للجيش الألماني .

يد أن براوشيتش نفسه لم يكن في الحقيقة إلا منفذاً ، أما الرجل الذي كان مكلفاً بإنجاز تعليماته - من أجل المعركة الأخيرة التي سوف تقرر إبادة روسيا السوفيتية - فلم يكن سوى أدولف هتلر .

• • •

كانت القوات التي تجمعت تحت قيادة المارشال ذي الأنف المستطيل وشعر الرأس المحلوق على الطريقة البروسية . تشكل أكبر قوة جمعت من أجل معركة واحدة على الجبهة الشرقية : فقد ضمت ٧٨ فرقة على أهبة خوض الحرب بلغ مجموعها مليوناً ونصف المليون من الجنود الألمان مستعدين جميعاً للهجوم .

وكان اسم هذا المارشال فيدور فون بوك ، والهدف الذي على هذا الحشد الهائل أن ينجزه قبل نهاية هذا العام ١٩٤١ يتلخص في كلمة واحدة هي : موسكو : أما الاسم الرمزي الذي وقع عليه الاختيار ليشير إلى هجوم فون بوك على عاصمة السوفيت ، فلم يكن يترك أي مجال للشك فيما كان مفروضاً منه من هذه المعركة الكبرى الحاسمة في القيادة العليا في بروسيا الشرقية . وهذا الاسم هو : «الإعصار» .

وإذ تصدى جيش فون بوك الضخم لفصل الشتاء القاتل ، فإنه تخلخل تحت تلك السماء التي كادت تطبق على الأرض ، بينما هو ينتزع النصر تلو النصر من القدر ، ومن زوابع

الثلوج ، والأمطار الباردة والوحل !

وفي مساء يوم ٨ من أكتوبر كان هذا الجيش قد استولى على مدينة (أوريل) التي إلى الجنوب الغربي من موسكو ، وفي اليوم التالي كان الدور على مدينة (فيازما) التي تبعد مائتي كيلومتر عن العاصمة . وفيما بين فيازما وبريانسك في الجنوب ، انغلق الشرك على جيشين روسيين حوصرا تماماً .

وفي يوم ١٢ من أكتوبر سقطت مدينة بريانسك . وفي هذا اليوم نفسه حدث عندما اجتاز الكولونل جنرال إيريش هونز ودباباته من الجيش الرابع المدرع نهر (أوجرا) - وهو آخر الأنهار قبل موسكو - تركت ثلاث فرق روسية وراءها كل مدافعها وعتادها على ضفاف النهر ولاذت بالفرار ، وراح ٦٦٣٠٠٠ أسير روسي يبيعون على وجوههم في السهول ، تطاردهم طائرات السلاح الجوي الألماني .

وفي الشمال والغرب والجنوب أخذت الحلقة تضيق ، وفي صورة التقطتها إدارة الدعاية التابعة لقوات العاصفة ، لتكون دليلاً على الأهمية التاريخية للقتال في ذلك اليوم ، ظهرت (لوحة) مدفونة إلى نصفها في الثلوج وطلبت باللونين الأسود والأحمر وقد كتب عليها : إلى موسكو ١٠٠ كيلو متر!

كان ذلك يوم ١٤ من أكتوبر ، وفيه أصبح الطريق مفتوحاً إلى الكرملين . بيد أن الأوامر المعطاة للقوات ، والهدف الذي تحدد لذلك المليون ونصف المليون من الجنود ، بما فيهم خمسة وعشرون جنرالاً واثنتان من مارشالات الرايخ - لم تكن لتكفي الجميع . وقد قرر فون بوك تجاهل ذلك ، أما جنرالاته فلم يستطيعوه .

فوراء الجنرالات آلاف من الضباط ، ومئات من قادة الألوية ، وعشرات من الرتب الكبيرة ، ثم أكثر من المليون من المحاربين الألمان ، الذين استمروا في القتال وهم يرتدون الثياب الخفيفة التي جاءوا بها عند بدء الغزو ، وأمام الجميع أقسى شتاء عرفته روسيا ، منذ مائة وثلاثين عاماً .

ولقد ظهر الجليد للمرة الأولى ليلة ٤ من نوفمبر ، وبعد ذلك أخذ مقياس الحرارة ينخفض بدون انقطاع ، حتى بلغ ٣٤ درجة مئوية تحت الصفر في أواخر الشهر . وخلال الأيام التالية انقض الصقيع القطبي ، فهبطت الحرارة إلى ٥٢ درجة تحت الصفر .

وأخذ جحيم من الظلام والموت يذفن في طياته الجيش الألماني بأكمله ، وتضاءلت

ساعات النهار بصورة مروعة حتى أصبحت مثل نصف اليوم العادى ، وتكاثف الظلام وانتشر أكثر من ذى قبل ، وظل على ذلك أكثر من أربع عشر ساعة فى اليوم .  
أما قتلى الجيش الألمانى الذين كان عددهم من بداية الحرب فى عام ١٩٣٩ حتى بداية الحرب فى الشرق ١٥٠٠٠٠ ، إذا بعددهم يرتفع إلى ٧٠٠٠٠٠ يوم ١٣ من نوفمبر . ثم إلى ٧٤٣٠٠٠ يوم ٢٦ ، كما جاء فى ( يوميات ) فريتش هالدنر رئيس أركان حرب القوات الألمانية الذى أوضح أن أكثر من نصف هؤلاء القتلى كانوا بسبب التجمد .

\*\*\*

وبرغم ذلك فإن السباق النهائى كان يقترب من غايته : ففى جو هبطت حرارته إلى ٣٠ درجة تحت الصفر فى صباح يوم الجمعة ٥ من ديسمبر ، تمكنت دوريات الاستطلاع التابعة للفرقة الثانية المدرعة التى يقودها الجنرال ( فايل ) من الوصول إلى المحطة النهائية للترام فى موسكو ، على بعد ساعة من محطة « الميدان الأحمر » ، وفى المكان الذى تستدير فيه عربات الترام ، لتعود إلى المدينة .  
لم يكن الروس ولا الألمان يستطيعون معرفة ذلك ، إلا أن جنود أدولف هتلر لم يغامروا بالذهاب إلى أبعد منه .

وفجأة - وفى جو بلغت حرارته ٣٨ درجة تحت الصفر - توقف الهجوم الكبير . فبينما كانت جيوش فون كلوج ، وهوبنر ، وهوث ، والفرق الاثنتا عشرة التى قاست كثيراً ويقودها جودريان ، هذه الجيوش التى أنهكتها الأوامر المحمومة المتدفقة عليها من القيادة العامة البعيدة فى ( أورشا ) ، حيث مقر قيادة فون بوك ، أو من مكان أبعد من ذلك يبعث بها كل ساعة براوشيتش أو هالدنر أو جودل إن لم تكن قادمة من هتلر نفسه - هذه الجيوش قد حاولت بقدر ما تستطيع أن تنفض عن نفسها شعور البؤس وقشعريرة البرد ؛ لكنى تنطلق فى آخر هجوم لها ، وتوجه الضربة الحاسمة .

فلما كانت الليلة الرابعة والستون بعد المائة ، منذ بدأت معركة روسيا ، إذا بها تفاجأ بأن شيئاً ما قد تغير ، وأن حدثاً جديداً قد وقع :

ذلك أنه من بين طيات الظلام المثنجة . أخذت المدفعية السوفيتية ترح الفضاء على طول الجبهة نصف الدائرية التى بلغت ٣٢٠ كيلومتر وتحيط بالعاصمة المحاصرة ، ثم جاء الفجر . وظهر معه كأنما جاء من العدم جيش يضم آلاف الآلاف من الأشباح البيضاء . كما لو كان

السهل كله قد بدأ يزحف ويتحرك !

هذه الأشباح المتدثرة في معاطف في لون الجليد ، وفي أقدامها وعلى رءوسها أحذية طويلة وأغطية رأس مبطنة بالفراء استولت على ميدان المعركة ، وأصبحت ملتصقة به ، وراحت تطلق أسلحتها وهي في حمى ثيابها الثقيلة من برودة الشتاء .

إنها القوات السيبرية ، الاحتياطى الأخير للجيش الأحمر ، جرى تجنيدها في (ترانسبا لكاليا) ، وجمى بها من أقاليم نهرى (آمور) و(أوسورى) عند حدود اليابان وروسيا الآسيوية . وتحت إمرة جنرال في الخامسة والأربعين من عمره يدعى (جورجى زوكوف) ، جاءت ١٨ فرقة جديدة من المشاة والفرسان تؤيدها ٨ ألوية سيبرية مدرعة ، لشجدة القوات السوفيتية المسلحة عند جبهة موسكو .

وأصيب الجيش الألماني بينا كان على بعد عشرين كيلو متر من هدفه بصدمة مروعة . فبدأت قوات فون بوك تتراجع في أغلب القطاعات ، وحتى جودريان الذى كان على بعد ١٤٠ كيلومتراً إلى الجنوب من موسكو اضطر ليلة ٦ من ديسمبر أن يتخذ أكثر القرارات مرارة في حياته كجندي : فقد أصدر هذا الرجل الذى جعل من المدرعات أداة حاسمة في انتصارات الرايخ الكبرى أمراً بالانسحاب من أمام مدينة (تولا) .

ولم يكن جودريان وحده الذى فعل ذلك : فن الشبال إلى الجنوب . وفي صميم الشتاء الوحشى وعبر حقول الجليد حيث ابتلع جيش نابليون من قبل ، أخذ خمسة وثلاثون جنرالاً ألمانيا يخرجون على التعاليم التى وجهتها إليهم القيادة العليا في (راستنبورج) . والتي كانت تقضى بعدم التخلي عن شبر واحد من الأرض الروسية التى تم غزوها ، والدفاع عنها حتى الموت .

وقد أحبط هتلر علماً بالتقارير الواردة من جبهة موسكو . بينا كان في مؤتمر عسكري عقد في صباح اليوم التالى الموافق الأحد ٧ من ديسمبر .

كان فالتر فون براوشيتش الذى استشعر مقدما الكارثة قد ناشد هتلر عدة مرات ؛ لكي يعفيه من القيادة . وقبل ذلك بثلاثة أسابيع ألت به نزلة قلبية أقعدته عن الحركة ، فلم يعد سوى شيخ رجل ، وخبال لما كان عليه ! فلما جاءت الأنباء إلى القيادة العليا هتلر ، تأجلت إلى ما بعد مسألة صحة القائد العام للجيش .

وفي روسيا نفسها لم يكن فون بوك الرجل الذى اختير ليكون قاهر موسكو ، بأحسن من

ذلك حالاً : فقد داهمته آلام فظيعة في معدته جعلته لا يعرف طعم الراحة ، وإذ كانت أجهزة تليفوناته في متناول يده دائماً فإنه كان يصفى إلى فرانس هالدن وهو يكرر قوله : « هجمة أخرى يا بوك ، ثم ينتهى كل شيء ، ونحز النصر ! »  
غير أن فون بوك رد عليه يوم الأول من ديسمبر بأن قواته قد أصبحت فعلاً في النفس الأخير ! وأنها قد تجمدت ! وأنه لن يمضى وقت طويل حتى يكون من المستحيل عليها أن تتحرك .

وفي يوم ٣ من ديسمبر راح المارشال فون بوك يحذر القيادة بصوت وضح فيه الكلال قائلاً : « إن الوقت يقترّب يا هالدن الذي سوف يسقط فيه جنودى موتى من فرط الإرهاق . . ! ومن على بعد ١٥٠٠ كيلومتر من الجبهة أواجه رئيس هيئة الأركان فقال : « تشجع يا سيدى المارشال ، إن أفضل طريقة للدفاع كما تعلم إنما هى الهجوم ! » .

يبد أن هالدن نفسه كان يعلم بدوره أن ما يحدث فى (كالينين) وفى (كلين) ، حيث الحرارة هبطت إلى ٣٥ درجة تحت الصفر - أمر آخر ، وأن ساعة اتخاذ القرارات الخطيرة فى هذه الحرب قد حانت . وفى المذكرات الخاصة التى تركها فرانس هالدن وراءه ، وظلت سراً حتى آخر الحرب - وردت العبارة التالية التى تبيّن على الذهول : « إن ذلك الوهم الذى كان يساورنا من أن العنصر الجرماني لا يقهر - قد زال تماماً ! » .

ولكن هذا الوهم كان لا يزال مستقراً تماماً فى قلب رجل واحد على الأقل ، محتلطا بكل ما فيه من غطرسة وعجرفة بكل كيانه . إن العشرات من الجنرالات الذين أداروا ظهورهم لما قاموا به من فتوح ، وكذلك عدد من قادة الجيوش الألمان ، مثل جودريان وهويرنوسونيك وفون رونشتت نفسه ، إذ لم يعودوا يرون أمامهم سوى قواتهم المنسحقة المعطمة ، فإنهم أصدروا أوامره بالانسحاب ، لكنى ينقذوا العشرات والمئات من الألوف من جنود الجيش الألماني .

أما أدولف هتلر ، فإنه راح ينظر إلى الأمر نظرة متناقضة تماماً ، هى أنه مهما حدث فإن الجبهة الشرقية يتحتم أن تصمد ، وألا تتراجع أبداً كائناً ما كان الشمن ! ذلك أن الجيش الألماني برغم الجراح التى ترزت به لا يزال قوياً كبيراً العدد مسلحاً بيبث الخوف فى النفوس . أما « انسحاب الشتاء » بالصورة التى يفكر بها عدد كبير من جنرالات الجبهة بهدف الانتظار حتى ربيع العام التالى ١٩٤٢ فى مواقع إستراتيجية أكثر ملاءمة ، فإنه يعرض الجيش الألماني للهجمات عبر سهول الثلوج ، وسيكون هذا الجيش حينئذ معرضاً لضربات العدو تحت

عواصف الرياح الباردة والجليد بأكثر ألف مرة مما يتعرض له إذا هو حفر خنادق له في مواقعه الخالية ، حول المدن والقرى التي يتعين أن يتشبث بها بأي ثمن . فتصبح له معاقل برغم قصف القنابل وهجمات الروس !

وحتى خطوط الانسحاب نفسها ظلت موضع خلاف : وقد ذكر الجنرال بلومنتريت أنه « لو أن هذه الخطوط أقيمت خلف الجبهة فإنه لا وجود لمكان مناسب لها . وإذا استمر الانسحاب بضعة أيام فإن رجالنا سوف يستلقون جميعا على الأرض انتظاراً للموت . كما حدث قبل ذلك لجيش نابليون ! »

ثم جاء أمر هتلر القاطع : « على الجيش ألا يتحرك خطوة واحدة إلى الوراء ، وعلى كل رجل أن يقاتل في المكان الذي هو فيه ! » . وقد أبطل هذا الأمر كل ما عداه من اعتبارات إستراتيجية أو إنسانية ، مما كان يفكر فيه الجنرالات .

• • •

وفي خضم هذا التحول الحاسم في النزاع المسلح ، الذي اندلع في سهول بولندا قبل عامين من الزمان ، لم يكن من المستطاع إيجاد نقطة تلاق بين هاتين النظريتين .

لقد كان في إمكان هتلر - في نقاط معينة من المعارك - قبول بعض ( التنازلات ) التي تنتزعها منه الضرورة القصوى ، غير أن القيادة العليا حرصت هنا على التذكير بأن التفكير في انسحاب عام لا بد أن يستبعد تماماً : لأن الاعتماد على إقامة مواقع متأخرة بالغ الخطر . وهكذا فإن هتلر هو الوحيد الذي كان بعيد النظر وواقعيًا : ذلك أن الأمور الذي أصدره بالثبات في كل مكان ضد العدو - وبأي ثمن - لم يكن صادراً عن مجرد إحساس بالزهو لدى حاكم مستبد يزعم أنه من عنصر يتسبب العناصر الأخرى ، أو عن رجل متعطش للغزو والنصر ، وإنما كان صادراً حقيقة عن قائد عسكري جسر ثابت الجنان ، عاكف دائماً على تقارير هيئة أركان الحرب وخرائطها ، ممتلىء ثقة بصدق نظريته للأمور ، قادر على أن يسلب عدوه ستالين ذلك اللقب الذي يحسده عليه من أنه « الرجل الفولاذي ! » .

وهذا الثبات الذي لا يتزعزع ، والرأي المتعسف ، بل الشعور اللإنساني الذي انطوت عليه إرادة هذا الآرى - فإن هتلر نجح في انتشار الجيش الألماني العامل في روسيا من الهول المروع الذي كان في انتظاره ، وأستطاع بتضحية رمزية أن ينقذ قوات الرايخ من التفكك

الكامل والفناء التام .

وقد قال الجنرال فون تيفنسكرسن فيما بعد للمؤرخ البريطاني ليدل هارت مؤكداً في إعجاب : « لقد كان ذلك أعظم نجاح حققه هتلر : فقد أدرك الرجال في ذلك الوقت الحرج . أن أمر الفوهرر لهم بالصمود كان فيه نجاة لهم من مثل المصير الذي لقيه جيش نابليون عندما انسحب من موسكو » .

\* \* \*

أما جميع أولئك المارشالات والجنرالات الذين خالفوا أوامر القيادة العليا - أولذين كانوا يتهبثون لمخالفتها - فقد خلعوا من قياداتهم ، وأعيدوا إلى ألمانيا يجرون ثياب الخزي والعار ، وصدرت عاصفة من قرارات الطرد من الجيش أطاحت بخمسة وثلاثين جنرالاً ! وكان أول هؤلاء هو جيرد فون رونشتت قائد مجموعة جيوش الجنوب الذي استولى على (روستوف) وعلى مواقع القوقاز . فعزل عن قيادته ؛ لأنه تخلى عن انتصاراته للجيش الأحمر . وتجاسر على أن يقاتل وهو ينسحب .

أما هوبنر الذي أصدر أمراً بالانسحاب للجيش الرابع المدرع بينما كان أمام موسكو فإنه جرد من رتبته العسكرية . وحرّم عليه ارتداء الزي العسكري الألماني بقية حياته . وأما سبونيك فقد أحيل إلى مجلس عسكري وصدر حكم بإعدامه . على حين أن جودريان نفسه - بعد حديث عاصف مع هتلر سوف نورده في آخر هذا الفصل بكل تفاصيله - تلقى تصريحاً بالعودة إلى ألمانيا مع إحالته إلى قوات الاحتياط . أما فون بوك الذي عجز عن الاستيلاء على موسكو وقد أنهكته آلام معدته . فقد خُلع من منصبه ، وحل محله المارشال فون كلوج .

وقد بلغت عملية التطهير في القيادة العليا في (راستنبورج) أقصى مراحلها بما ترتب على ذلك من نتائج بالنسبة لمستقبل القوات العسكرية في الرايخ وسير الحرب ، ولم يقلت من هذه العملية حتى كيتل الذي كان حتى ذلك الوقت هو المنفذ الدليل لأوامر الفوهرر .

فلقد طرده هتلر ؛ لأنه نجراً وأقر أمراً عاجلاً بالانسحاب العام من أمام موسكو . وعند ذلك راح يديج خطاب استقالته من منصب رئيس أركان الجيش الألماني ، وقد وضع مسدسه إلى جانبه ! فلما دخل عليه الجنرال جودل ووجده على هذه الحال سارع بأخذ السلاح ، وأقنعه بأن ينسى القصة كلها . ونصحته بأن ينفذ توجيهات هتلر دون أن يناقشها . وفيما بعد عندما

سأله أحد زملائه عن طبيعة علاقته بالفوهرر أجاب الفيلد مارشال قائلاً : « لست أدري ! فهو لا يوجه إلى أي حديث ، وإنما يكتبني بأن يبصق علي ! » .  
على أن أهم التغييرات التي حدثت في أعقاب « أزمة موسكو » إنما جاءت على أعلى المستويات : ذلك أن حالة فون براوشيتش الصحية لم تتحسن ، فراح القائد العام يلح على هتلر لكي يصرح له بالسفر ليعالج قلبه في بافاريا . وفي يوم ١٩ من ديسمبر أعلن الفوهرر قراره الذي أذهل الشعب الألماني ، والطبقة العسكرية الألمانية ، والعالم أجمع !  
إن ما كان يعتقده هتلر في براوشيتش الذي تربع منذ عام ١٩٣٨ على رأس القوات البرية للرايخ ، يظهر بوضوح في ( يوميات ) جوبلز الخاصة ، إذ يقول عن ذلك : « إنه رجل بائس كسول ومغرور يعجز عن السيطرة على أي موقف ، وقد أفسد تماماً خطة معركة الشرق ، ولو أنه نفذ ما كان يتعين عليه تنفيذه فعلاً ، لكان موقفنا اليوم مختلفاً . »  
من هنا فإن هتلر لم يشعر بأى أسف وهو يبعد قائد الجيش ، وقد جاء هذا الإجراء بارعاً ، فإن الفوهرر قدمه للرأى العام وهو يبعده في صورة المسئول عن الفشل أمام موسكو .

“ \* ”

ولقد كانت مسألة خلافة قائد عام الجيش الألماني من الأمور ذات الخطورة البالغة التي لم يسبق أن أثرت منذ ثلاثة سنوات ، عندما أبعاد عنها كل من الجزائين فون بلومبرج وفون فريتش . وهاهي ذى تطرح الآن ، على حين أن الحرب دائرة على أشد ماتكون ، وفي وقت يتعرض فيه الجيش الألماني لأعنف أزمة في تاريخه .

فن الذى يحل محل براوشيتش ؟

لقد انتظر هنر اثني عشر يوماً قبل أن يعن رده على هذا السؤال ، ففما أعلنه تفجر كالرعد ، وكان الجنرال فرانس هالدنر رئيس أركان الحرب الجديد هو أول من اطلع عليه في مطلع النصف الأخير من ديسمبر ١٩٤١ .

لقد كان أدولف هتلر منذ سبع سنوات مضت - يجمع بين يديه منصب رئيس الدولة ، ومعه صلاحيات القائد الأعلى للجيش الألماني والقوات الألمانية المسلحة ، فلما ألغيت وزارة الحرب في عام ١٩٣٨ تولت اختصاصاتها هيئة أركان الحرب الشخصية لهتلر ، والشئ الوحيد الذى امتنع شكلياً على سيطرة الفوهرر المباشرة - هي تخصصات القيادة العليا للقوات البرية التي تولاها فون براوشيتش .

ولكى يصبح هتلر القائد العام لجميع القوات المحاربة في الرايخ ، لم يكن باقياً إلا أن يضم هذه التخصصات ، وكان هذا ماتم يوم الجمعة ١٩ من أكتوبر . وقد تلقى الجنرال هالدنر هذا النبأ دون أن ينطق بكلمة واحدة ، فإن هتلر كان بذلك قد بسط سلطته رسمياً على السلوك المباشر لجميع العاملين في السلك العسكرى .

وقال هتلر لهالدنر : « إن أى إنسان يستطيع القيام بهذا العمل البسيط في قيادة العمليات . إن عمل القائد العام هو تثقيف الجيش في الفكر الوطنى الاشتراكى ، ولست أعرف أى جنرال يستطيع أن يقوم بذلك كما أريد . ومن أجل ذلك فقد قررت أن أتولى بنفسى قيادة الجيش » . وقد كتب ( وليام شيرر ) في كتاب له بعنوان ( الرايخ الثالث ) في هذه النقطة فقال : « لقد أبلغ هتلر رئيس أركان حربه الجديد في احتقار ، أنه يستطيع الاحتفاظ بصلاحياته في القيادة ، ولكن بريقاً من الاعتراف بالجميل ومن الشعور بالخوف معاً استقر ساعتها في كيان الجنرال ، إذ إنه لم يكن يطلب سوى ذلك بكل تأكيد » .

وابتداء من تلك اللحظة أصبح أدولف هتلر هو الذى يدير الحرب ويوجهها بمفرده ، وصارت لرغبته قوة القانون على كل شىء في ألمانيا ، وبات يسيطر شخصياً على كل مقدرات الجيش الألمانى .

وهكذا أصبح جيش الرايخ لا يستطيع أن يحرك أقل وحدة من وحدات الاحتياط فيه - وخاصة الوحدات المدرعة - إلا إذا وافق هتلر رسمياً على ذلك . وسوف يسفر هذا القرار بصفة خاصة عن الكارثة التى حافت بألمانيا يوم ٦ من يونية ١٩٤٤ على شواطئ نورماندى . وبذلك سجل فشل القوات الألمانية أمام موسكو مرحلة حاسمة في تطور العلاقات بين هتلر وجزرالاته منذ عام ١٩٣٤ غداة ليلة « السكاكين الطويلة » ، وإلغاء فرق الهجوم التابعة لروهم ، ثم الأزمة الكبرى التى وقعت عام ١٩٣٨ .

• • •

لقد كان من شأن أول معركة كبرى يخسرها الجيش الألمانى - وينسب هتلر مسئوليتها إلى الذين أشرفوا على تنفيذها في الجبهة - أن أتاحت له تحقيق ما كان يفكر فيه منذ عامى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ وفترة الإعداد للتزاع المسلح ، ألا وهو القضاء على الطبقة العسكرية الأرستقراطية .

وفي أواخر عام ١٩٤١ بينما كان الجيش الأحمر مستمرا في إحداث الثغرات التى كان يقوم

بها ، وإنها كرهه للقوات الألمانية حول العاصمة السوفيتية . كان أدولف هتلر يتذوق طعم انتصاره الفردي الذي لم يكن في الحقيقة إلا نصراً مريراً سوف يدفع ثمنه عشرات الألوف من الجنود الألمان على الجبهة الروسية !

وفي ذلك الشتاء القارس في الشرق ، ظل هتلر واثقاً من مصيره بوصفه رجل العناية الإلهية الذي وضع على رأس الأمة الجرمانية ؛ لكي يقضى على البلشفية ، ويحقق نصر ألمانيا الكبرى ، وينشر فتوحها ، ويرفعها فوق دول العالم أجمع !

إن هذا الاعتقاد الراسخ قد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك عقب أحداث ذلك الشتاء : ففي الخطاب الذي ألقاه هتلر يوم ٣٠ من يناير ١٩٤٢ ، بينا كانت محنة الشرق في عنفوانها - تحدث بما لا يحتمل أى لبس عن ثقته غير المحدودة في ذاته التي وصفها بأن لاشيء يززعها قط !

غير أن القوهر الذي كان من قبل رجلاً كله حيوية وحرارة ، وتبدل في جبينه خصلة من الشعر الكستنائي ، وقد انتصب جسده المعتدل كأنه شجرة الصنوبر الجبلية الفارحة ، إذا به يصبح في شهر مارس ١٩٤٢ ذكاتوراً ، ذا شعر مثنى فيه الشيب دائم الشكوى من الدوار الذي لا يفارقه ، ولم يعد يطبق رؤية الثلوج التي تذكره بأمر تبعث في جسده قشعريرة مؤلمة ومع ذلك فإن هتلر كان مقتنعاً أكثر من أى وقت مضى بعبقريته العسكرية ؛ إذ إن ذلك الأمر الذي أصدره بعدم الانسحاب ، فأعطى نتائج باهرة أمام موسكو ، جعل تلك العقيدة ترسب في كيانه ، وأوحت إليه أنه لا يخطئ أبداً ، ومن هنا فإنه يكرر إصدار الأمر بالصمود وعدم التراجع في جميع الأحوال ، سواء كان خطأ أوصواباً كأنه الدواء لكل داء . لكن ذلك أسفر في نهاية الأمر عن خسائر في قواته لاحدود لها ، ومن هذا فناء الجيش الكامل الذي كان يقوده فون باولوس في ستالينجراد ، والتراجعات المدمرة التي كان يمكن تجنبها بنوع من الدفاع المرن ؛ أوتنقصر الجبهات بحيث تتيح مقاومة لا يمكن أن توفرها قوات نقل بكثير عن الحشود السوفيتية التي لا تعد لها من أجل الحفاظ على تلك الأراضي الفضاء الواسعة التي احتلت عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٢ .

وهكذا حاقت بألمانيا كوارث رهيبية في الأيام التالية ، استمدت جذورها من النصر الذي حققه هتلر في شهر ديسمبر ١٩٤١ على جنرالاته ، بذلك الإصرار الذي كان له يومها ما يبرره ، والذي جعله يصدر أمره بعدم التراجع على الإطلاق .

وكما سبق أن أشرنا ، فإن الحوار الذي جرى بين هتلر وجودريان قبل أن يبعده عن القوات المسلحة للمرة الأولى ، يبين سلوك الفوهرر في أواخر عام ١٩٤١ إزاء محاولة قواته النجوى إلى تكتيك القتال وهي تنسحب . ونورد فيما يلي ما رواه جودريان بنفسه في « مذكرات جندي » التي سجلها وتركها وراءه .

يقول جودريان :

« هبطت في الطائرة يوم ٢٠ من ديسمبر ١٩٤٢ حوالي الساعة ١٥ ، ٣٠ ، في مطار راستنبورج . وقد استغرقت مقابلي لهنتر خمس ساعات تخللتها فترتان للاستراحة كل منها نصف ساعة : الأولى لتناول الغذاء ، والأخرى لعرض أحداث عن سير الحرب صورت في بعض الأفلام حرص هتلر على أن يشاهدها بنفسه .

« وقد استقبلني في الساعة ١٨ ، ٠٠ في حضور كل من كيتل وشمونت ، وعدد آخر من الضباط . ولم يشترك رئيس هيئة أركان الجيش ولا أحد يمثل القيادة العامة في هذا المؤتمر الذي عقد في القيادة الجديدة للقوات البرية ، وهو المنصب الذي أسنده هتلر لنفسه بعد أن سرح المارشال فون براوشيتش . وكما حدث لي يوم ٢٣ من أغسطس ١٩٤١ فقد وجدت نفسي بمفردي إزاء عصابة قيادة هتلر العليا .

« وبينما أخذ هتلر يتقدم لتحتي دهشت إذ أحسست للمرة الأولى بنظرة حادة كلها عداء . وأن أقرأ في عينيه لحة أيقظت في الاقتناع بأن جانباً آخر قد شحنه ضدي . وقد ضاعف ضوء الغرفة الصغيرة التي استقبلني فيها من شعوري بعدم الارتياح !

« وبدأ المؤتمر بوصف قدمته عن حالة العمليات في الجيش المدرع الثاني وفي الجيش الثاني . ثم عرجت على نيتي في التراجع على مراحل بالجيشين إلى موقع ( زوسا - أولان ) . وكنت قد شرحت هذه الفكرة للمارشال فون براوشيتش ، وحصلت على تفويض منه بتنفيذها ، وكنت أعتقد أن هتلر على علم بذلك .

« وقد كانت دهشتي كبيرة . وأنا أسمعه يرد على في عنف قائلاً : « لقد حظرت ذلك ! » وعند ذلك قلت : إن حركة التراجع جارية حالياً . وليس هناك أي موقع ملائم أمام خط النهر . وإنه لاسبيل إلى خيار آخر ، إذا هو وافق على المحافظة على قواته ، والوقوف خلال الشتاء في مواقع مستقرة .

فقال : « يتعين عليك أن تلتحم بالأرض ، وتدافع عن كل متر مربع منها !

فأجبت : « ليس في الإمكان الالتحام في كل مكان بالأرض ، فهي متجمدة بعمق متر أو متر ونصف المتر . والمعدات البسيطة التي لدينا لا تتيح لنا الحفر حتى نصل إلى الأرض المتربة » .

قال : « احفروا مخاضاً بالألغام الثقيلة ، إن ذلك مافعلناه في الفلاندر في الحرب العالمية الأولى » .

قلت : « إن قواي عليها أن تدافع عن جبهات تتراوح بين ٢٠ ، ٤٠ كيلومتر ، ولدى بالنسبة لكل فرقة من هذه القوات أربع حفارات . فلو أتي استخدامها لما أمكن أبداً أن تنجز ما يكفي الرجال إلا بعد سنوات ! إن الجوف الفلاندر لم يكن يمثل هذه الدرجة المنخفضة من الحرارة التي نتحملها اليوم ، ثم إنني أحتاج إلى ذخائر لدفع الروس إلى الوراء ، بل إننا لا نستطيع أن ندفن الخوابير في الأرض لمد خطوطنا التليفونية إلا إذا حفرناها بالمتفجرات ، فأين يمكن أن نحصل على متفجرات تكفي حفر مواقع بمثل هذا الاتساع ؟ »

« غير أن هتلر أصر على أمره الذي يقضى بأن نثبت في المكان الذي نحن فيه ، فقلت له : إن ذلك معناه العودة إلى حرب المواقع في أرض غير ملائمة . كما كانت في الغرب خلال الحرب العالمية الأولى . إننا إذا فعلنا ذلك فسوف نتعرض لنفس معارك العتاد وللخسائر الكبيرة التي حدثت في ذلك الوقت بغير أن تتمكن من اتخاذ القرار . وسوف نفقد منذ حلول الشتاء بهذا التكتيك خيرة ضباطنا وصف ضباطنا والاحتياطي المخصص لهم ، وهذه التضحية لن تكون لها أي فائدة ، كما أننا لن نستطيع تعويضها »

فسألني هتلر : « هل تعتقد أن حملة البنادق في قوات فردريك الأكبر قد ماتوا بمحض اختيارهم ؟ لقد كانوا بدورهم يريدون الحياة ، ومع ذلك فإن الملك طالبهم بالتضحية بحياتهم . وأعتقد أن لي كذلك حق مطالبة كل جندي ألماني بأن يضحي بحياته ! »

- إن كل جندي ألماني يعرف أنه في زمن الحرب عليه أن يضع حياته تحت تصرف وطنه ، وقد أثبت جنودنا حقاً حتى الآن أنهم على استعداد لتقديم هذه التضحية إلا أنه يتعين ألا نطالبهم بها إلا إذا كان المقابل يستحق ذلك . إن التعليمات التي تلقيتها سوف تؤدي إلى وقوع خسائر لا علاقة لها بالنتائج الملموسة . والأمر ليس كما اقترحت من أن قواتنا سوف تلتقي عند خط ( زوسا - أولا ) مواقع محصنة ترجع إلى معارك الخريف ، فيها وقاية من الصقيع . إنني أطلب منك أن تفكر في أن العدو ليس هو الذي أوقع بنا خسائرنا الفادحة ، وإنما البرد القارس هو



الجرال مودل يتحدث إلى بعض الشباب المظري في مارس ١٩٤٥ . وقد اتحربعد ذلك بشهر ، وكان الروس يطالبون به لإعدامه



الجرالات فون كليست قائد المجموعة الأولى للمدرعات الألمانية التي تتكون من خمس فرق دبابات ، والتي كانت رأس حربة لغيرش الجنوب بقيادة فون رونشتت



عندما بدأ الهجوم السوفيتي على الأراضي الألمانية ، راح سكان المناطق المعرضة للهجوم يهجرونها بالآلاف .



الجنرال مودل خلال الهجوم على (كورسك) وقد أحرر الهجوم ، رغم رأى فون كلوجيه وفون مانشتاين ، انتظاراً للتعزيزات . وقد اصطدم هذا الهجوم بمقاومة عنيفة من جانب الروس .

الذى كبدنا ضعفى ما كابدناه من نيران الأعداء . إن مَنْ رأى المستشفيات المملوءة بالرجال الذين تجمدوا من البرد يعرف ما الذى يعنيه ذلك .

فقال هتلر : « إننى أعرف أنكم كابدتم الكثير ، وأنك كنت تلتزم قوائك باستمرار ، وأعترف بذلك . غير أنك قريب جدا من الأحداث ، وتترك نفسك تتأثر بما يعانیه الجنود ، فأنت لذلك تشفق عليهم أكثر مما يجب ، فيلزمك إذن أن تراجع قليلاً لترى المشهد بصورة أكمل ، فالمرء يرى الأشياء عن بعد أفضل مما يراها عن قرب »

- إن واجبى أن أفعل بقدر آلام جنودى . وذلك أمر بديهي ، وعلى أن أخفف من بقدر ما أستطيع ، لكن ذلك يكون من أصعب الأمور عندما لا يكون لدى هؤلاء الجنود ثياب للشتاء ، وعندما يضطر المشاة للقتال وهم يرتدون ثياباً مصنوعة من التيل ! إن هذه القوات تنقصها الأحذية الطويلة ، والملابس الداخلية ، والقفازات ، والمعاطف الثقيلة ؛ وذلك هو ما يجعلنى أشفق عليهم .

فقال هتلر فى غضب : « ليس ذلك صحيحاً ؛ لقد أخبرنى مدير المخابرات أن مستلزمات الشتاء قد أرسلت إليكم » .

- لقد أرسلت ولاشك . ولكنها لم تصل بعد ؛ فإبنى أتابعها على الطريق ؛ وهى الآن فى محطة (وارسو) منذ أسابيع ، وستبقى فيها حتى تبلى نتيجة لنقص القطارات وازدحام الطرق ! وهنا استدعى هتلر مدير المخابرات ، فأكد ما قلت ، وكانت « حمنة الثياب » التى قام بها جوبلز فى عيد الميلاد فى عام ١٩٤١ ، هى نتيجة هذه الواقعة . إلا أن الجنود لم يحصلوا على ثياب شتوية خلال ذلك العام .

وخلال العشاء جلست إلى جوار هتلر . وانتبهت الفرصة لأقول له تفاصيل حياتنا فى الجبهة . ولكن ماقلته لم يحدث الأثر الذى أنشده ، وقد اعتبره هو ومن حوله مبالغاً فيه . ولذلك فإبنى اقترحت عندما استؤنف المؤتمر بعد تناول العشاء ، إحداث حركة تنقلات للضباط الذين يعملون فى القيادة العليا وفى هيئة أركان الحرب ، لكي يذهبوا إلى الجبهة ويعرفوا مايدور فيها على الطبيعة ، ثم قلت : « إن موقف هؤلاء السادة جعلنى أوقن أن التقارير التى نبعث بها إليهم لاتجهد لديهم الفهم الصحيح ، ومن ثم فهى لاتصل إليكم أولاتعرض عنكم بصورة سليمة . ويبدو لى أنه يتعين أن ينقل إلى القيادة وهيئة الأركان ضباط خاضوا التجربة على الجبهة ، فأحزم أمرى على تغيير هذا الحرس ؛ فإن هذه الحرب تختلف تماماً

عن الحرب السابقة ، ولا يمكن الإحاطة بها بمجرد الاشتراك في الحرب العالمية الأولى» .  
غير أنني كنت كمن يحرث في البحر . إذ أجاب هتلر بامتعاض : « لن أغير من حولي في  
الوقت الراهن » .

ولقد ذهب كل ماقلته أدراج الرياح ؛ فبينما كنت أغانر قاعة المؤتمر قال هتلر لفون كيتل :  
« إنني لم أستطع إقناع هذا الرجل »  
وهكذا انفتحت ثغرة كان من غير المستطاع سدها !

obeikandi.com

## الفضل الحادى والثلاثون

### الجو الخائق . . داخل القيادة العامة

لقد نشر (البرت سبير) الذى كان يشغل منصب وزير الإنتاج والتسليح فى الرايخ مذكراته التى جمعها فى كتاب بعنوان : « فى قلب الرايخ الثالث » .  
والواقع أن هذا الكتاب يعتبر مرجعاً خصباً للكثير من الأحداث المثيرة التى وقعت فى ألمانيا خلال ذلك العهد ، كما أنه فى رأينا خير ما يتيح التعرف عن قرب على شخصية هتلر ، والوقوف على التطور الذى طرأ عليه فيما بين صعوده إلى السلطة ، واليوم الذى انتحرف فيه ، فضلاً عن الإحاطة بالجو الذى كان ينجيم فى عام ١٩٤٣ على القيادة العامة ، وسلوكه إزاء الجزالات والمؤامرة التى تعرض لها :

• • •

فى عام ١٩٤٣ ، فكر كل من سبير وشمونت ، فى أن يعلبا إلى مقر قيادة هتلر عدداً من ضباط الجبهة الشبان لإدخال شىء من الروح السائدة فى الخارج إلى القيادة العليا ؛ مما يتيح تجديد الجو الخائق الذى كانت غارقة فيه .

وذاذ يوم جاء إلى القيادة ضابط مدرعات ، وراح يروى للفوهرر قصة ثغرة وقعت فى صفوف الجيش السوفيتى على نهر ( تيريك ) ، فقال : إن وحدته لم تلق هناك أى مقاومة ، ولكن نقص الذخيرة اضطرها الى وقف تقدمها . وقد غضب هتلر لذلك غضباً شديداً لدرجة أنه ظل عدة أيام بعد هذه الرواية وهو لا يكف عن العودة الى الموضوع ، ثم يقول : « هذا هو ما كان إذن : نقص فى ذخيرة عبار ٧٥ ، فأين الإنتاج إذن ؟ لا بد من عمل كل شىء فى سبيل زيادته » .

والواقع أنه كان لدينا فى نطاق وسائلنا المحدودة ، ما يكفى من قذائف هذا العيار ، غير أن تقدم القوات الألمانية كان من السرعة ؛ مما جعل عملية تزويدها بالذخائر لا تستطيع متابعتها

نتيجة لنقص في وسائل المواصلات ، لكن هتلر رفض أن يأخذ هذه الحجة في الاعتبار . وهناك أحداث أخرى مزعجة حدثت عنها أولئك الضباط الشبان ، ومنهم من كان يجهل من الجهة مباشرة ، واستنتج من هذه الأقوال أن هيئة الأركان ترتكب أخطاء خطيرة . ولكن أكثرها كان يرجع إلى الصعاب التي تنشأ عن أوامر هتلر بالإسراع في تقدم القوات ، إلا أنه كان من المستحيل على الخبراء أن يناقشوا الأمر معه ، لأنه كان لا يعرف ما يكفي عن التعقيدات التي تترتب على فتح ثغرة في صفوف الأعداء .

\*\*\*

وكان هتلر يستقبل بين الحين والآخر الضباط والجنود الذين كان يمنحهم أوسمة عسكرية نتيجة لأعمال بطولية . وما كان لا يثق في كفاية أركان حربه فكثيراً ما كان يحدث بعد هذه الزيارات نشاط كبير نتيجة للأوامر ذات الاتجاه العام التي يعطرها هذه الهيئة . ولكني يتق كبتل وشمونت كل ذلك كانا يعمدان إلى الالتقاء بالزائرين قبل أن يستقبلهم هتلر لتغيير من تنطوى عليه أقوالهم معه من خطورة .

وكان تناول شاي العصر الذي يدعو هتلر إليه أركان الحرب والمقربين إليه قد أخذ يتأخر مع مرور الأيام . إلى أن أصبح يبدأ حوالي الساعة الثانية من بعد منتصف الليل . وينتهي في الثالثة أو الرابعة صباحاً .

وكان واضحاً أن هتلر يعاني من الأرق . إذ كان صول تفكيره في الحرب لا يجعله قادراً على أن يعمض عينيه . وكان هؤلاء المقربون هم عادة من الأطباء الذين يشرفون على حالته الصحية ، ومنسكرتيريه العسكريين أو المدنيين ، والسفير الألماني ( هوبيل ) ، ومندوب عن إدارة الصحافة ، وفي بعض الأحيان طاهيته العجوز التي جاء بها من فيينا ، ثم بورمان وألبرت سبير .

وكلما مرت الأيام ازداد ميل هتلر إلى التزام الصمت ، وابتداء من خريف ١٩٤٣ أصبح الجيوس معه عذاباً لا يطاق . فقد كان مدعووه يزددون الطعام في صمت ، فإذا تحدث أحدهم عن الجور تبديلاً لهذا الصمت انبرى هتلر ، ووجه اللوم إلى رجال الأرصاء الجوية الذين لا يحسنون التنبؤ عن التغيرات في الطقس بالدقة التي يطلبها .

وبالتدريج أصبح هتلر يعيش في عزلة عن حوله حتى وهم معه ، وأخذ شعوره بالوحدة يعذبه ، حتى إذا كان ذلك الخريف ، بدأ يردد عبارة يسرها إلى ألبرت سبير ، يقول فيها : إنه

سيأتي قريباً اليوم الذي لن يبق له فيه سوى صديقين : كلبه وصديقه أيضا براون . وكان يقول ذلك بلهجة يشيع فيها الاشمزاز . دون أن يعبا باعتراض من يزعم من الحاضرين أنه يخلص له كل الإخلاص .

أما الفترة الوحيدة من يومه التي كان يشعر فيها بالارتياح . فكانت خلال ذلك المؤتمر الذي يعقده كل يوم مع أركان الحرب ، ويبدأ بعد الغذاء مباشرة حوالى الساعة الثانية .

ولم تكن مائة العمليات قد تغيرت منذ ربيع ١٩٤٢ ، وكان الذين يقفون معه حولها هم نفس الجزرالات ونفس مساعديه العسكريين . فيروح هو يفحص جميع الخرائط على حين يتابعونه في صمت ، وقد بدؤا جميعاً كأنهم قد شاخوا خلال الشهور الثمانية عشرة الماضية . أما هتلر فقد أصبح يصفى إلى الآراء التي يدلي بها بعضهم في غير مبالاة .

" = "

وتجرى بعد ذلك مناقشات تتناول كل مامن شأنه أن يبعث على الأمل ، وكانت عمليات استجواب الأسرى والتقارير القادمة من الجبهة تحمل على التفكير في قرب حدوث خوار في قوى العدو . وكانت الخسائر التي تنزل بالروس خلال الهجمات الألمانية عليهم . تبدو أكثر فداحة مما يصيب القوات المهاجمة حتى برغم الفارق الكبير بين عدد سكان كل من الجانبين . وكانت الانتصارات الألمانية البسيطة تتخذ خلال هذه المناقشات أبعاداً مبالغاً فيها ، فلا يثبت هتلر أن يصدق ذلك ، ويرى في هذه الانتصارات الدليل على أن القوات الألمانية يمكنها أن تقاوم الهجوم الروسي ، حتى تستنزفهم تماماً . أما أغلب ضباط القيادة العليا فكانوا على ثقة من أن القوهر سوف يضع نهاية للحرب عندما يحين الوقت الملائم لذلك . والواقع أن هتلر كان يأمل تحليل الموقف ، ولم يكن يفكر في تقويم وسائل الإمدادات الضرورية لتنفيذ مخططاته ؛ ولم تكن هناك مجموعات للبحث والدراسة ؛ لكي تقيس جميع فرص نجاح الهجمات التي يخطط لها . أو تقدير مدى الهجمات المضادة التي يمكن أن يقوم بها العدو . وكان أعضاء القيادة العامة مؤهلين للقيام بكل هذه المهام التي تتفرع عن الحرب الحديثة . ولم يكن ينقصهم إلا أن يكلفوا بالقيام بها .

ومن المقطوع به أن هتلر كان يستعلم عن بعض المجالات الخاصة . غير أنه هو بمفرده الذي كان يقوم بتحليل التفاصيل كافة . وكذلك فإن جزالاته ومعاونيه المباشرين لم يكن لهم في الحقيقة إلا دورٌ استشاري ؛ لأن الذي كان يحدث في أغلب الأحوال أنه يتخذ قراره قبل أن

يطلب مشورتهم ، فلم يكن في الإمكان تغيير ما استقر عليه إلا في النادر القليل .  
وفضلاً عن ذلك فإنه كان يتحدى جميع المعلومات التي كان يمكن أن يستخلصها من سير  
المعارك في روسيا عامي ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، أما ضباط القيادة العامة الذين كانت توركهم  
المسئولية الضخمة الملقاة على عاتقهم ، فلم يكن يصنعهم في هذا الصدد سوى أوامر توجيههم من  
أعلى ؛ لكي تملي عليهم السلوك الذي يجب أن يتبعوه ، إلا أن القلة من هؤلاء الضباط هم  
الذين طلبوا أن يذهبوا إلى الجبهة هروباً من تبيكيت الضمير الذي كانوا يعانون منه في القيادة  
العامة .

إن هذه الظاهرة مازالت غير مفهومة حتى اليوم ، إذ إنه قد ثبت تاريخياً أنه مامن ضابط  
في تلك القيادة قد أبدى في ذلك الوقت أي تحفظ على ذلك الوضع ، حتى لو كان تحفظاً  
أدبياً . والتفسير الوحيد لذلك هو أن عالم القيادة العليا الذي كانوا يعيشون فيه بما كان يسوده  
من جو وما استقر فيه من خوف ، جعلهم قليلي الإحساس بما يجري من حولهم .  
ومع ذلك فإن القرارات التي كان يتخذها هتلر ، كانت لها عواقب ثقيلة فادحة : فقد  
كان يحدث أن تقع قوات ألمانية في حصار لا يخرج منه ، لالشيء إلا لخطأ وقع فيه هتلر ، نتيجة  
لملاحظة منه في إصدار أمر بالتراجع أو الانسحاب وفقاً لما تقترحه هيئة أركان الحرب . وكان المعنى  
الذي تنطوي عليه هذه القرارات ، والمعارك التي تدور ترتيباً عليها ، والقتلى الذين يسقطون  
خلالها ، لايعنى هؤلاء الضباط في شيء .

• • •

ولو أن هتلر أوهية أركان حربه قد قاموا بجولة ما على الجبهة ، لتكشفت لهم بغير عناء  
الأخطاء الجوهرية التي كان من شأنها أن سالت الدماء أنهاراً ! غير أنه هو ومساعديه  
العسكريين كانوا يعتقدون أن في استطاعتهم إدارة العمليات فوق خرائط هيئة الأركان ، دون أن  
يعرفوا شيئاً عن قسوة المناخ ، أو عن حالة الطرق خلال الشتاء الروسي ، ولم يدركوا أذهانهم أن  
الجنود الألمان متعبون منهوكو القوى ، استنفذت كل طاقاتهم ، وقد زدودوا بأسوأ عتاد ، وقد  
أصبحوا لا يجدون أي مكان يأوون إليه ، فيضطروا إلى دفن أنفسهم في الأرض شبه  
المتجمدة ، فيحفر كل منهم لنفسه فيها حفرة يرقد فيها ؛ إذ كانت مقاومتهم قد انتهت منذ أمد  
بعيد !

وفي المؤتمرات التي كانت تعقد في هيئة الأركان ، كان هتلر يُدخل في اعتباره أن هؤلاء

الجنود المتعبين المرهقين قوات في عنفوان نشاطها وكامل عدتها ، فيأمر بأن يساقوا إلى معارك طاحنة ، ثم يصدر بعد ذلك أحكامه على سلوكهم فيها . وفوق الخرائط كان يعمد إلى نقل الفرق في كل اتجاه ، على حين كانت أنفاسها قد تبددت ، ولم يعد معها لاسلح ولا ذخيرة . وكثيراً ما كانت الفترات التي يجدها لتحركاتها ، لاعلاقة لها على الإطلاق بإمكاناتها الحقيقية ! ولقد كان مركز الاتصال بالقيادة العامة نموذجاً متقدماً في ذلك الوقت ، إذ يتيح الاتصال الفوري المباشر مع جميع مسارح العمليات الكبرى ، لكن هتلر كان يضيء أهمية أكبر على هذه الإمكانيات ، فيستخدم التليفون واللاسلكي والتليكس ، وكان من شأن هذا الاستخدام حرمان الجنرالات المسؤولين من كل إمكان للتصرف وفقاً لمبادراتهم الخاصة ، كما كان يحدث في الحروب السابقة ؛ لأن هتلر كان يتدخل في كل كبيرة وصغيرة في أي قطاع من الجبهة يعملون هم فيه .

وبفضل هذا المركز كان هتلر يجرى اتصالات وهو جالس في مكتبه ، أو وهو يجلس في مؤتمر ، فيتولى قيادة جميع القوات العاملة في جميع الجبهات ، والمشاركة في جميع المعارك . وكلما تدهور الموقف أسهم هذا الجهاز الفني الحديث في زيادة الفجوة بين الواقع والخيال الذي يسيطر على سير العمليات من هذا المركز .

• • •

ولقد كان الذكاء والصلابة والأعصاب الفولاذية ، هي التي يقول هتلر إنها الصفات الأساسية المطلوبة لقيادة العمليات الحربية ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن جميع هذه الصفات كامنة فيه ، بدرجة تفوق بكثير ما في الجنرالات من صفات . وكان يصرح علناً بذلك ، دون أن يعبا بمدى المهارة التي ينطوى عليها بالنسبة للضباط الذين يسمعونه ، ولم يكن هتلر يخشى في أغلب الأحوال أن يوجه إلى أكبر رأس في هيئة الأركان أقذع الشتائم والإهانات ، فكان يتهمهم بفقدان العزيمة ، وبأنهم يفضلون أن يجاربوا وهم ينسحبون ، وبأنهم يتخلون بدون داع عن الأرض التي احتلوها . وبأنهم من الكسالى الذين ليست لديهم الشجاعة لخوض أي حرب !

وكان يقول إنهم كانوا يحاولون دائماً ثنيه عن أي عمل مجيد ، بادعائهم أن القوات الألمانية ضعيفة . فإلى من تنسب الانتصارات إذن إن لم تنسب إليه وحده ؟ والواقع أنه كان يعدد دائماً

جميع الانتصارات العسكرية التي أنجزها برغم الرأي المعارض الذي كان يأتي من أركان الحرب العامة .

وكان يحدث أن يفقد الفوهرر السيطرة على نفسه . فيستولى عليه الغضب فجأة ، ويصبح وجهه قرمزياً ، وتروح الكلمات تتراحم خارجة من فمه وهو ينعت هيئة الأركان بأقسى الصفات كأن يقول : « إنكم لستم فقط كسالى مقعدين . ولكنكم فوق ذلك كذابون ! إن كلية أركان الحرب تعلم الكذب والخداع ! والمعلومات التي حثت بها رءوسكم زائفة ! أنتم ترعمون أن الموقف متدهور ، لاشيء إلا لكي تحملوني على الحرب وأنا أنسحب ! »

إن الأوامر التي كان يصدرها لم تكن تعني إلا أن يظل خط الجبهة سليماً مستقيماً . منها كلف ذلك . وكثيراً ما ترتب على ذلك أن اقتحمت الخطوط الألمانية بعد أيام أو أسابيع . وقضى السوفيت بذلك على قوات كان يمكن نقاذاها . أما هتلر فكان يجد في ذلك سبباً جديداً لانفجارات جديدة من غضبه . فيصدر أحكاماً قاسية سواء على الضباط أو على الجنود . كأن يقول : « إن جنود الحرب العالمية الأولى كانوا أكثر شجاعة منكم ! فعليكم أن تعودوا إلى الأعمال البطولية التي قاموا بها في مواقع مثل ( فردن ) أو ( السوم ) . حتى تتعلموا منهم ! » .

ولابد أن الكثيرين من الضباط الذين أهانهم بهذه الطريقة قد شاركوا في مؤامرة يوم ٢٠ من يوليو . وبينما كان هتلر فياً مضى مهذباً رقيقاً ، يختار أفضل الكلمات يخاطب بها من حوله . إذا به يتحول . فلا يراعى أى تحفظ ، ولا يستطيع أن يسيطر على مشاعره . أو أن يمسك لسانه عن الانطلاق بأقسى الألفاظ !

==

ولكى يترك هتلر وراءه للأجيال القادمة الدليل على أنه كان دائماً يتخذ من القرارات أفضلها ، فإنه أمر بأن يجيء عدد من المختبرين الذين يعملون في الرايخستاج لكي يجسوا على مائدة المؤتمرات التي تعقدها هيئة أركان الحرب . ويسجلوا كل ما يدور فيها .

وق بعض الأحيان - عندما كان يخجل إليه أنه قد عثر على حل لإحدى المعضلات - فإنه كان يسأل : « هل سجلتم هذا ؟ إنهم سوف يقولون يوماً : إنني كنت على حق . لكن هؤلاء الحمقى من أركان الحرب لا يريدون أن يصدقوني ! »

وعندما كانت القوات تتدفق بغزارة على المؤخرة . فإنه كان يصيح قائلاً : « هاهم مرة أخرى لا ينفذون أوامري . ثم ينسحبون بدعوى كاذبة من أن الروس أجبروهم على ذلك ! » .

إن هتلر لم يكن يريد أن يعترف بأن خسائره إنما ترجع إلى موقف الضعف الذي أصبحت عليه القوات الألمانية ، عندما اضطرت إلى أن تحارب في عدة جبهات .  
ولقد انتهى الأمر بأولئك المحترلين الذين كانت لديهم قبل عدة أشهر صورة مثالية عن هتلر وعبقريته . كما أدخل جوبلز في روعهم - أن أصيبوا بنجبة أمل أكبر ، وبدءوا يتصورون أنهم يحضرون اجتماعات تعقد في مستشفى للمجانين ! لقد أصبحوا الآن يواجهون الواقع وهم يسجلون ما يدور . فتبدو على وجوههم علامات الملح والاستغراب ! وكان يخيل لمن يراهم على هذه الحال أنهم مندوبيون عن الشعب ، قدر لهم أن يكونوا شهوداً مباشرين على الفاجعة التي تجري فصولها .

وكان هتلر الذي بات أسيراً لنظرية ابتدعها تقول إن السلاف . ماهم إلا أناس متخلفون ، قد ادعى أن الحرب معهم لن تكون سوى لعب أطفال . ولكن كلما استطالت الحرب فإن الروس بدءوا يشترعون احترامه لهم .

فلقد بلغ التأثير مبلغه منه نتيجة للصلابة التي تحملوها بها خسائره وهزائمهم . وكان يتحدث عن ستالين بالكثير من الإكبار . وهو يبرز وجهه الشبه بينها ، وكان يرى أن الخطر الذي كان يخيم فوق موسكو في شتاء عام ١٩٤١ ، يشبه تماماً الوضع الذي أصبحت عليه ألمانيا .

وفي الأوقات التي كان يشعر فيها بالتفاؤل ، كان يعاوده الاعتقاد بأنه سيستصر ، فيقول على سبيل المزاح إنه سوف يعهد عندما يهزم الروس بإدارة الاتحاد السوفيتي إلى ستالين تحت وصاية ألمانيا . لأنه أفضل من يخضع الشعب الروسي ، ولأنه كان يرى في ستالين ندأ له . فإنه أمر عندما وقع ابن ستالين في أسر القوات الألمانية ، بأن يعامل أفضل معاملة .

ولقد تغيرت الأمور كثيراً منذ ذلك اليوم الذي تنبأ فيه هتلر بعد أن وقع اتفاقية الهدنة مع فرنسا . بأن محاربة الاتحاد السوفيتي ستكون زهرة عسكرية . فقد وصلت به الحال إلى أن اقتنع بأن مشكلته في الشرق تجرى مع خصم عنيد ، وذلك على عكس الفكرة التي لازمته حتى نهاية الحرب ، من أن جنود الغرب كانوا أحجاراً محاربة ! وحتى تلك الانتصارات التي حققها الحلفاء في أفريقيا وإيطاليا لم تجعنه يتراجع عن هذه الفكرة : ذلك أنه كان يؤمن بأن الديمقراطية تخنث الشعوب !

وإلى صيف عام ١٩٤٤ . لم يكن يكف قط عن الاعتقاد بأن القوات الألمانية قادرة تماماً

على أن تستعيد كل شيء في الغرب في أقل وقت ممكن ، إذ كانت فكرته عن رجال الدولة في تلك البلاد لها علاقة بهذه الوجهة من النظر . ولم يكن ونستون تشرشل في رأيه الذي كان يكرره في اجتماعات أركان الحرب سوى رجل غوغائي عاجز ، وأنه سكير لا يفيق من أحلامه قط .

أما روزفلت فإن هتلر كان يؤكد جادا أن مرضه ليس ناشئاً عن إصابته بتدرن رثوى ؛ وإنما يرجع إلى شلل نتج عن إصابته بالزهرى ، وأنه لذلك إنسان غير مسئول ! وهتلر في هذه التقديرات إنما يعتمد إلى الهروب من الواقع ، وهي صفة ظلت منذ ذلك الوقت تلازمه حتى آخر أيامه .



هتلر في قاعة الخرائط الخاصة في مقره في عش  
النسر في برخستجادن ، يتابع تقدم القوات  
الألمانية في ساحات المعارك المختلفة . وإلى جانبه  
ألبرت سبير وزير الإنتاج الحربي .

هتلر في (جحر اللدنب) في راستنبورج الذي  
انتقل إليه ابتداء من عام ١٩٤٢ ، يداعب كلبه  
الأمين (بلوندى) ، الذي قال أنه الوحيد في مقر  
القيادة الذي يشعر بالهدوء .



obeikandi.com

## الفضل الثاني والثلاثون

### مؤامرة . . وحفنة من الجزرالات

برغم أن الكثيرين من العسكريين الألمان الكبار كانوا يتخذون موقف التحفظ أو العداء تجاه هتلر - وهما تحفظ وعداء أوحى بها أو ضاعف منها الاعتقاد الجازم بأن هزيمة ألمانيا أصبحت أمراً محتوماً - فإن قلة ضئيلة منهم هم الذين كانوا على استعداد للانتقال من النقد الى التفكير في إحداث انقلاب ، كما سوف يثبت من مؤامرة يوم ٢٠ من يوليو .

حقا إنه كانت هناك من قبل الحرب معارضة من العسكريين المحافظين ، بقيادة الجنرال ( بيك ) ومعهم الكولونل ( أوستر ) و ( جوردلر ) عمدة مدينة ليبزيغ في إمكانها الاعتماد على بعض الجزرالات مثل الجنرال فون فيتزلين ، وهوبنر ، وهالدر ، وفون ترشكوف ، وكارل فون ستولناجل ، إلا أن الشعبية التي اكتسبها هتلر بعد ميونيخ . ثم انتصاراته المتلاحقة ، والأحداث العسكرية التي بددت الرجال ، كل ذلك قد حال دون أى تأمر جاد .

ومع ذلك فإن الاتصال قد ظل قائما بين أعضاء هذه المعارضة الذين ضموا صفوفهم ابتداء من عام ١٩٤٣ ، عندما ظهرت الضرورة الملحة لإبعاد هتلر إذا أريد تجنب خراب ألمانيا . غير أنه سوف يتضح أن أغلب الذين شاركوا في مؤامرة يوليو ١٩٤٤ إنما كانوا من الجزرالات المتقاعدین ، أو من الذين أخرجوا من الجيش ، ومن رتب الكولونلات أو مادون ذلك : أى أنهم كانوا رجالا بغير قوات .

أما الجزرالات الذين كانوا يتولون قيادات كبيرة ، فلم تجذبهم هذه المؤامرة ، مراوغة أو تردداً . كل ما فعلوه أنهم التزموا الصمت ، مع أنهم كانوا يعلمون بوجود المؤامرة ، وهو ما يدل على أنهم سوف ينضمون إليها في حالة نجاحها . ويشبه ذلك على وجه التقريب ما حدث في الجيش الفرنسي عام ١٩٦١ ، عندما وقع ماسمى بانقلاب الجزائر ، إلا أن الجزرالات الفرنسيين كانت تحت سيطرتهم قوات أكبر مما كانت تحت سيطرة المتأمرين في برلين .

وفي يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ ، أصدر هتلر الذي كان لا يستيقظ عادة من نومه إلا في الساعة العاشرة صباحاً ، أمراً بأن يوقظوه في الساعة التاسعة : ذلك أنه كان ينتظر موسوليني في ساعة مبكرة من بعد ظهر ذلك اليوم ؛ مما اضطره إلى تقديم موعد أول مؤتمراته الحربية اليومية الذي يعقد في تمام الساعة الواحدة .

وكان هتلر في ذلك الصباح متعكر المزاج من تأثير المواد المخدرة التي يتعاطاها ، والمنشطات التي يحقنها بها الدكتور ( موريل ) الذي يشرف على علاجه . غير أن المحيطين به لاحظوا أنه أكثر عصبية في ذلك اليوم منه في أي يوم آخر . وفضلاً عن ذلك فإنهم يعرفون أنه يكره مفر قيادته العامة في بروسيا الشرقية ، وهو ما أسماه « جحر الذئب » ، للبرودة القارصة شتاء ، والوحشة التي تخيم عليه منذ وصل يوم السابع عشر ، فوجده خائفاً لا يطاق . وقد شعر بالأسف على أنه حرم الهواء الصافي الذي تركه في قيادته العامة في بافاريا ، وراح يقارن بين تلك القيادة في ( برجهوف ) بمخابثها التي أقيمت في باطن الأرض فسيحة شاسعة ، حيث كان يعقد اجتماعات أركان الحرب عندما كانت طائرات العدو تقوم بغاراتها هناك ، وبين هذه القيادة في ( جاستر باراك ) ، التي تحول نوافذها العشر المفتوحة على آخرها دون مرور الهواء .

وكانت هذه القيادة قد أقيمت في بداية عام ١٩٤١ من عدة أكواخ صنعت من الخشب ، ولكنها دعمت في الربيع بطبقة كثيفة من الأسمنت المسلح بناء على تعليمات من ألبرت سبير . وكانت هذه العملية لا تزال مستمرة في هذه « القرية » العجيبة التي أخفيت ببراعة حتى لا تظهر من الجو ، فغطيت أسقفها بشباك خضراء وضعت فوقها أوراق وأغصان الشجر ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الغابة المحيطة بها .

\*\*\*

وكان هتلر قد ألقى في الليلة السابقة حديثاً على مسكرتيريه ؛ كما اعتاد أن يفعل في ختام المؤتمر الذي يعقده في منتصف الليل ، واستمر يتحدث حتى الساعة الثالثة صباحاً . وقد ظل يحتجزهم بعد هذا الحديث وهو واقف على قدميه ؛ ليقول لهم عبارة أخيرة : « إن لدى شعوراً سيئاً ، ولكن المهم ألا يحدث لي شيء ؛ فليس من حقي أن أسقط مريضاً ؛ فليس هناك وقت لذلك » .

كان الهدف الرئيسي من ذلك المؤتمر يتعلق بالإجراءات العاجلة التي ينبغي اتخاذها للصمود

في وجه الهجوم الجديد الذي شنّه الروس في إقليم (جاليسيا) . وعندما دخل هتلر في الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر إلى المنجيا ، كانت خرائط العمليات تغطي المائدة الطويلة الوحيدة التي وضعت حولها بضع مقاعد بدائية .

وكان في الاجتماع الجنرال إيبرياش قائد قوات حرس القوهر ، والجنرال سيب ديتريش ، ونائب الجنرال جانسي رئيس أركان حرب المدرعات الجديدة . وقد أكمل الاجتماع كل من الجنرال هوسينجر مدير العمليات ، ومساعد الكولونل برانت ، والجنرال شمونت وجودل وكورتن ، ولم يكن باقياً سوى المارشال كيتل ، وأحد الضباط الذي استدعاه هو الكولونل كونت كلاوم فون ستاوفنبرج الذي قدم من برلين ؛ ليقدّم تقريراً عن فرق الحرس الشعبي الجديدة التي رأى هتلر أن تشكيلها يتم ببطء شديد .

وبإشارة من القوهر ، بدأ هوسينجر يتحدث . وفي الوقت نفسه فتح الباب ليدخل منه كيتل ، وقد بدا عليه الاضطراب لتأخره دقيقتين عن موعد الاجتماع ، يتبعه ستاوفنبرج ويأوره الخاص . وألقى هتلر نظرة تعجب إلى هذين الرجلين اللذين سارع كيتل بذكر اسميهما ، ولو أن ستاوفنبرج سبق له أن اشترك في مؤتمرات كبيرين للقيادة العامة ؛ كما أنه من الأشخاص الذين لا يساهم المرء بسهولة .

كان هذا الضابط الطويل القامة الذي يبلغ السابعة والثلاثين من عمره يبدو جميلاً برغم تلك العصابة التي التفت على جبهته ؛ ففي معركة تونس فقد إحدى عينيه ، وعدداً من أصابع يده اليسرى .

وحيا هتلر ، الذي كان يخفي الرعدة التي تسرى في يده اليسرى ، القادمين بيده اليمنى في إيجاز ، ثم أوماً إلى هوسينجر للمضي في حديثه .

وجلس ستاوفنبرج بين كيتل وبرانت على بعد أقل من مترين عن هتلر ، الذي كان جالساً وإلى جواره سكرتيره الخاص (برجر) ، واثنان من المختلطين . أما الضباط الستة المعينون لحراسته من قوات العاصفة ، ومندوبيا هيملر وجورنيج فإنهم ظلوا وقوفاً ، مثلهم مثل الجنرالات .

وانحنى ستاوفنبرج ليستند حقيبة أوراقه على إحدى أرجل المائدة ، ثم أخذ يلتقط أنفاسه ، فقد كان لا يزال يسائل نفسه : هل سيصل بحقيبة الشمينة ، وكذلك هو نفسه حتى «جحر الذهب» .

وأوراقه ؛ وكان ياوره الخاص فيريز فون هايفتن يخفى بدوره قبله أخرى بالطريقة نفسها لاستخدامها إذا لم تنفجر الأولى .

وكان ستاوفنبرج قد اشترك منذ تعيينه في يونيو الماضي في منصب رئيس أركان حرب الجزائر (فروم) القائد العام للجيش الداخلي . في عدد من المؤتمرات العسكرية التي يرأسها هتلر . وكان هذا الضابط الكاثوليكي المترم الذي ينحدر من أسرة من كبار الجزائريات ، من بينهم الجزائر (جايزناو) وهو ابن رئيس ديوان آخر ملوك فورتبورج ، يؤمن في البداية بفضائل الوطنية الاشتراكية قبل أن يتولاه شعور بالعار والاشمئزاز فور وقوع عمليات الاضطهاد الأولى التي تعرضت لها الكنائس المسيحية ، ونتيجة لأعمال التعذيب التي تعرض لها اليهود .

ولقد تدعمت معارضته لهتلر منذ عامين . وأصبح ينتمى إلى جماعة من العسكريين الذين كانوا يسعون للقضاء على هتلر ، وإقامة حكومة قادرة على الدخول في مفاوضات مع الحلفاء . وقد استطاع ستاوفنبرج بثقافته العالية أن يلهب بحيوته وآرائه أولئك الذين كان يحاول إقناعهم بفكرته . ونجح في أن يحتذب إلى حركة المعارضة جميع الرجال الذين اتصل بهم . وقد استقر هو وأصدقاؤه منذ بضعة أشهر على أنه يتحتم الانتهاء من هذه المهمة .

وعندما وجهت إليه الدعوة لحضور مؤتمر القيادة العليا لنفوهير يوم ١١ من يوليو ، كُنف بالقيام بمهمة اغتيال هيملر وجورنيج في الوقت الذي يقتل فيه سيدهما الفوهرر . لكن هيملر كان غائبا عن هذا الاجتماع ، ففأ بلغ الجزائر أولبريشت الضالع في المؤامرة ذلك ، أمر ستاوفنبرج بتأجيل مهمته .

وقد سنحت الفرصة بعد ذلك بأربعة أيام أي يوم ١٥ من يوليو : فعندما دعى ستاوفنبرج إلى مؤتمر القيادة في (راستنبرج) تخلف لحظة عن الحضور ، لكي يتصل تليفونيا بالجزائر أولبريشت ليبلغه بعبارات متفق عليها أن هتلر سوف يموت بعد برهة وجيزة ، وإذا تيقن الجزائر من النجاح هذه المرة . فإنه سارع إلى البدء في تنفيذ خطة التمرد . !

غير أن ستاوفنبرج عندما عاد إلى قاعة المؤتمرات لم يجد فيها هتلر الذي تصادف أن اكتفى بالقاء بضع كلمات ثم انصرف . وقد تمكن أولبريشت في آخر لحظة من وقف تحرك الوحدات المتآمرة التي كانت قد بدأت بالفعل ترحف على برلين ، وقد شرح هذا التحرك للجزائر

( فروم ) الذى انزعج له ، بأنه مجرد تدريب .

وكانت خطة المتآمرين قد تم إعدادها منذ شهر أغسطس ١٩٤٣ ، والذى وضعها هو ستاوفنبرج نفسه بناء على طلب المارشال فون فيتزلين والجنرال بيك ، وعلى إقتراح من الجنرال أولبريشت . وقد وضع أسسها الأولى من قبل ميونيخ كل من الجنرال بيك والأميرال كاناريس مدير محاورات الجيش والمارشال فون فيتزلين ، الذى لم يكن فى القوات العاملة ، وكارل جويردler عمدة ليزيرج السابق ، وجميعهم من الذين ناهضوا النازية من الساعات الأولى . وتقوم الخطة أساساً على أنه فور إعلان موت هتلر يتم احتلال جميع المبانى العسكرية فى برلين وكولونيا وميونخ وفيينا ، وفى غيرها من المراكز الحيوية . وفى الوقت نفسه يجرى شل حركة قوات العاصفة فى برلين وما حوطا . وكان فى إمكان المتآمرين الاعتماد على مساعدة لواء الحرس - أو على الأقل كان يعتقد ذلك - وعلى بعض وحدات من المشاة والمدفعية والمدرعات ، وجميعها تحت قيادة أعضاء فى المؤامرة .

وكان ينتظر أن يعاون البوليس الذى تحت امرة الكونت هلدورف ومساعدته فريتس فون شولنبورج قوات الجيش ، وكذلك تفعل قوات « الساحة » التى يتولى قيادتها الجنرال فون هاسي ، والجنرال فيلجيبيل مدير الاتصالات اللاسلكية فى قيادة ( راستنبورج ) العامة . وكان الجنرال هالدن الرئيس السابق لهيئة أركان حرب القوات البرية الذى أحيل إلى الاستيداع عام ١٩٤٢ . قد انضم إلى المتآمرين .

وفى الشرق ، كانت صفوف المناهضين للنازية قد تدعت عقب الهزائم الحربية وهبوط الحلفاء فى نورماندى ، ووقفت وراء الميجور جنرال فون ترشكوف رئيس أركان حرب الجيش الثانى ، وهو أحد المحركين للمؤامرة الذى سبق له أن أعد عام ١٩٤٣ محاولتين فاشلتين لاغتيال هتلر ، وفى الغرب وراء فون ستولنباجل فى باريس ، وفون فالكنهاوزن فى بلجيكا .

وكان المعتقد أن الاستعدادات كافة قد اتخذت من أجل تأمين سير عملية ( فالكبرى ) ، فقامت أريكا فون ترشكوف زوجة الجنرال وابنة الجنرال فون أوفن بإعداد نسخ من أوامر الخطة ، وتمكنت من محاكاة توقيع الجنرال فروم بكل إتقان . وقد أطلق عليها هذا الاسم رغبة من المتآمرين فى خلق نوع من البلبلة والخلط مع مشروع وضعه الفوهرر بنفسه تحت هذه التسمية لإخفاء أى اضطرابات محتملة .

يبد أن المتآمرين لم يستطيعوا الحصول على موافقة نهائية من جانب المارشالين روميل وفون كلوجه الذى خلف فون رونشتت في قيادة الجبهة الغربية : أما روميل فقد وعد بمجرد المعاونة في اعتقال هتلر ، إذ رأى أن واجبه يحتم عليه أن يهب لمساعدة ألمانيا ، ولكن لا شيء أكثر من ذلك . وأما فون كلوجه فقد اكتفى بالاعتراف بأنه من الضروري عمل شيء ضد الفوهرر . وفيما يتعلق بالجزرال فروم قائد الجيش الداخلى ، فقد ارتبط بالمؤامرة يوماً واحداً ، ثم عاد في اليوم التالى وتراجع ، وقد أحدث تحوله هذا نوعاً عميقاً من الشكوك . وعلى العموم فإن قلة من الجزرالات الذين يتولون قيادات هامة هم الذين انضموا إلى المؤامرة . غير أن هؤلاء الذين تم الاتصال بهم بشأنها ، أو أحيطوا علماً بها ، إذا كانوا لم يسايروها ، فإنهم لم يكشفوا شيئاً عنها .

وإلى جانب العسكريين كان هناك رجال كبار يتمون إلى آفاق مختلفة : من بينهم الأرسقراطيون ، والقضاة ، والدبلوماسيون ، والقسم الكاثوليك أو الرعاة البروتستانت الذين تكونت منهم حول الكونت فون مولتكه حلقة (كرايزاو) ، وهو اسم عزبة هذا الكونت . وقد انضم إليهم عدد من أعضاء الحزب الاشتراكى الديمقراطى مثل جولوس لير ، ورايشفاين ، وهولباش ، وعدد من النقبائين المسيحيين مثل جاكوب كايزر ، تحذوهم جميعاً فكرة الواجب المسيحى .

وفي يوم ٢٠ من يوليو غادر ستاوفنبرج وفون هايفتن ، وكل منهما معه قبلته برلين في الساعة السادسة صباحاً ، واتخذوا طريقها إلى مطار (رانجسدورف) . وكان الجزرال مييجور (ستايف) الذى أمدهما بالقبليتين كما فعل قبل ذلك في عام ١٩٤٣ في المحاولة التى دبرها فون ترشكوف يقف في انتظارها عند طائرة من طراز (هينكل) : وهى الطائرة المخصصة للجزرال إدوارد فاجنر وضعها تحت تصرفها ومعها طيار موثوق فيه .

لم يتبادل الثلاثة سوى كلمات قليلة ، وكان كل منهم يعرف أن الموت مترصد لهم عند نهاية هذه الرحلة . وارتفعت الطائرة عن الأرض في الساعة السابعة ، وأحس ستاوفنبرج بثقة غامرة ، وهو يقطع الخمسمائة والخمسين من الكيلومترات التى تفصل بين برلين ومطار (راستنبورج) . ثم إنه كان وانقاً من القبلة التى معه ، ومن أن المتآمرين في حالة تأهب كامل في برلين . وفي الساعة العاشرة والربع وصلت الطائرة إلى وجهتها .

وقال فون هايفتن وهو يهبط من طائرة إل ( هينكل ) لقائدها : « فلنكن مستعداً للإقلاع في أى لحظة ابتداء من الساعة ١٣,٠٠ .

وكانت في انتظارهما سيارة من القيادة العامة ؛ لكي تحملهما إلى « جحر الذئب » الذى يبعد ثمانية كيلومترات .

ولم يكن فى استطاعة أى إنسان أن يقترب من « جحر الذئب » بغير جواز مرور خاص وتأشيرة دخول معينة يسرى مفعولها لبضع ساعات فقط ، ولا يزيد بأى حال عن يوم واحد . وفى قلب الغابة أنشئ طريق صغير يؤدي إلى أول منطقة بها أكواخ خصصت لهال مؤسسة ( تودت ) ورجال الحرس من جنود العاصفة الذين يقومون ومعهم كلاب بوليسية بدوريات مستمرة ليلاً ونهاراً .

وتفصل حقول الأنعام والأسلاك الشائكة التى نسرى فيها الكهربا هذه « القرية » عن القرية التالية ، التى خصصت لضباط القيادة العليا ولرجال إدارة الدعاية والإعلام . وعندما وصل ستاوفنبرج إلى النطاق الثالث تمنى ألا يعمد ضابط الأمن إلى فتح حقيقته . وقد اكتفى الضابط بالفعل بمراجعة جوازي المرور ، إذ كانت لديه توصية على الزائرين من فون مولندورف مساعد قائد المعسكر . وقصد ستاوفنبرج بعد ذلك إلى الجزائرال فيلجيبيل مدير الاتصالات اللاسلكية ، والعضو الأساسى فى المؤامرة قبل أن يذهب ليعرض على كيتل ملخصاً من تقريره ، فقال له هذا : « عليك أن توجز ، إذ إن الفوهرر يهجم أن ينتهى المؤتمر بسرعة ؛ لأن القطار الذى يحمل الدوتشى سوف يصل الساعة ١٤,٣٠ .

وعند ذلك غادر المارشال كيتل مكتبه ومعه ستاوفنبرج الذى قال : إنه نسى قبعة فى ردهة المكتب ، وعاد أدراجه ، وبالأصابع الثلاثة المتبقية فى يده حطم الكبسولة التى تحتوى على الحامض ، وكان هذا الحامض سيعمل على إذابة طرف سلك فيؤدى خلال الدقائق العشر القادمة إلى انفجار القبلة .

وفى اللحظة التى هم فيها ستاوفنبرج بالدخول إلى « جحر الذئب » توقف مرة أخرى ؛ لكى يبلغ بصوت مرتفع لكى يسمعه كيتل السرجنت العامل على خطوط التلفزيون - أنه يتنظر اتصالاً من برلين .

وما كاد هاوستنجر يستأنف العرض الذى كان قد بدأه حتى غادر ستاوفنبرج القاعة خلسة يتبعه ياوره ، وكان الآخرون يتطلعون فى تلك اللحظة إلى خريطة العمليات ، وعندما رفع

كيتل رأسه فلم ير الكولونل قام للبحث عنه في غرفة التليفون ، إذ كان عليه الآن أن يلقى كلمته .

وقال له العريف : إنه رآه يخرج مسرعاً ومعه ياوره ، فعاد كيتل إلى قاعة الاجتماع مفكراً فاستمع إلى العبارة الأخيرة في تقرير هاوسنجر التي قال فيها : « إن الروس يزحفون بقوات ضخمة ، ويتقدمون قادمين من غرب نهر (دونا) في اتجاه الشمال ، فإذا لم تنسحب مجموعة جيوشنا المرابطة حول بحيرة (بيوس) فوراً ، فستعرض لكارثة » .

وتبددت الكلمات في دوى الانفجار المروع ، ثم ارتفعت ألسنة من اللهب ، فانهارت الجدران والسقف وسط دخان أسود . وعلت صرخات الألم ، مما ضاعف من هول هذا المشهد .

وعلى صوت الانفجار جاء الضباط ورجال الأمن مسرعين ، فرأوا جنثاً ملقاة على الأرض ، وأخرى طارت عبر التوافذ ، وجدران القاعة وقد تهشمت . وكانت الساعة عندئذ الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين .

وفي خطوات سريعة قصد ستاوفنبرج وفون هايفتن إلى الجنرال فيلجيبيل ، فرأوا معاً الانفجار في كوخ الاجتماع ، وبينما أخذ الجنرال يتصل تليفونياً ببرلين لكي يبلغ بدء عملية (فالكرى) قفز الاثنان إلى السيارة التي ستقلها إلى مطار (راستنبرج) ، وقال ستاوفنبرج للسائق : « أسرع ، فإن لدى مهمة عاجلة ! »

غير أن الحراس كانوا قد أغلقوا البوابات المزدوجة لدى سماع الانفجار ، ومنعوا الخروج منها ، وطلبوا إرسال تعزيزات . وعند ذلك اتصل ستاوفنبرج بالجنرال مولندورف ، وحصل منه على تصريح بالمرور .

غير أنه عند الحاجز الثالث رفض ضابط من قوات العاصفة أن يسمح له بالخروج ، فاتصل مرة أخرى بالجنرال مولندورف الذي تحدث إلى الضابط الذي تطلع برهة قصيرة إلى يد ستاوفنبرج المشوهة وإلى الأوسمة المعلقة على صدره ، ثم سمح له أخيراً بالخروج .

وفي داخل السيارة فكك فون هايفتن خفية القبلة الاحتياطية ، والتي قطعها على جانب الطريق ، حيث عثر عليها المحققون بعد ظهر ذلك اليوم .

• • •

وكما تم الاتفاق فإن قائد الطائرة كان مستعداً للإقلاع . وفي الساعة ١٣،١٥ تطلع

ستاوفنبرج إلى البحيرات والغابات تحته دون أن يرى منها شيئاً ، وتبادل كلمات قليلة وفون هايفتن والجنرال ستايف الذى لم يعادر الطائرة ، لقد كانت فكرة واحدة هى التى تسيطر على هؤلاء الرجال الثلاثة ، وهى أنه يتعين أن يعيدوا إلى ألمانيا السلام ومعه شرفها !  
لكن هتلر لم يكن قد مات :

ذلك أن مصادفة أخرى أنقذت حياته ، وكانت هذه المصادفة اسمها (برانت) : لقد ضايقته ساقيه حقيقية ستاوفنبرج ، فدفعها بقدمه إلى الطرف الآخر من المائدة بعيداً عن الناحية التى يجلس فيها هتلر ، وقد أصيب برانت إصابة بالغة ، وأدلى بهذه الواقعة قبل أن يلفظ آخر أنفاسه .

وهكذا بينما كان ستاوفنبرج وزملائه يفكرون فى الطريقة التى تسير بها عملية (فالكيرى) التى أعطى الجنرال فيلجيبيل إشارة إلى أولبريشت ببدءها ، كان يجرى فى « جحر الذئب » مشهد ، بعيد كل البعد عن كل تصوراتهم .

لقد كان هتلر يتخطى الحطام والركام وهو يلهث وقد تغير شكله . واحمر شعر رأسه من اللهب ، واسودت وجنتاه ، وتمزقت ثيابه ، وتدلّت ذراعاه إلى جانبيه يسنده ياوره الخاص (ستاوب) الذى كاد يحمله حملاً ، وقد جاء مسرعاً على دوى الانفجار ، ويسنده من الناحية الأخرى كيتل الذى لم يصب بأى شىء .

وذهل كيتل وهو يرى الفوهرر يستعيد قواه فجأة ، ويعاوده صوته القديم الذى كان يتحدث به أيام نورمبرج . على حين أن أسابيع كثيرة انقضت وهو يتكلم برعشة واضحة ، ثم يصبح قائلاً : « يجب ألا تصدر أو تتسرب أى كلمة عن هذا الحادث ، فالزموا الصمت المطبق ، وإلا فالموت لكم ! »

وعلى الفور أصدر أمراً بتعطيل أجهزة الاستماع والإرسال ، وأن تقام المتاريس حول المعسكر . وهبط إلى الخجبا المقام تحت الأرض حيث فحصه فون هازلباخ الطبيب الجراح . وبينما الطبيب يقوم بذلك ، إذا بهتر يقفز واقفاً كما لو مسه نوع من الجنون ، وراح يصرخ قائلاً :

« إنهم لم ينالونى ، ولكنى وضعت يدي أخيراً على هذه العصاة ! »

وتبين أن جراحه سطحية ، وسرعان ما نهض ليغير ثيابه ، وبدأ يسأل عن من يكون قد أصيب فى الحادث ، فأجاب كيتل : « لقد وقع عدد من القتلى » .

وكان الموتى هم (برجر) السكرتير ، وثلاثة ضباط من قوات العاصفة ، وإحدى

المختبرات التي قطع الانفجار ساقاً منها ، ثم ماتت بعد ذلك . وأما الذين أصيبوا بجراح خطيرة لقوا مصرعهم بعدها ، فمنهم الجنرال (كورتز) رئيس أركان حرب القوات الجوية ، والجنرال (شمونت) ياور الفوهرر ، والكولونل (برانت) أما الذين أصيبوا فهم (بودنشتر) رئيس أركان المارشال جورنج ، وعدد من الرتب المختلفة ، وجميع الذين حضروا المؤتمر ما عدا كيتل .

وجاء السرجنت العامل على خطوط التليفون بمجرد أن أفاق من حالة انفعال شديدة ، فكشف عن أنه لم يتلق أى مكالمة من برلين خاصة للضابط ستاوفنبرج الذي أسرع بالخروج ومعه ضابط آخر . وهنا وصلت إشارة بأن القطار الذي يقل موسوليني قد وصل إلى (راستنبورج) متأخراً ساعة عن مواعده .

كان كل من ريستروب والأميرال دوينتير قد قدما بالطائرة فور إبلاغها بمحاولة الاغتيال ، فراحا يستقبلان الدوتشى إلى جانب جورنج وهملر . وسار موسوليني الذي بدا هزياً منحني الظهر وراء هتلر ، لكي يريه المكان الذي وقع فيه الحادث ، وقال الدكتور شميت المترجم الرسمي للفوهرر فيما بعد : إن الرعب قد ظهر على وجه الدوتشى وهو يسمع تفاصيل ما حدث . وبينما جلس الدكتاتوران لتناول الشاي جاء بلاغ بوقوع تمرد عسكري من برلين ؛ وهنا انفجرت مشادة كلامية أذهلت الدكتاتور الإيطالي : فقد راح الأميرال دوينتير يوبخ جورنج على الهزائم التي حاقت بالسلح الجوى الألماني ؛ كما أخذ جورنج يوجه عبارات اللوم إلى ريستروب على سياسته الخارجية ، واحتد في ذلك إلى درجة أنه هدده بعضا المارشالية ، وهو ينعته بأنه «مهرب حقير للشمباتيا» .

ولم يعبأ هتلر بهذه الضجة ، واستمر في تناول الشاي ؛ ثم نطق واحد من الحاضرين باسم (روهم) ، فإذا به يصيح قائلاً إنه قتل روهم فعلاً ، وإن هذه العقوبة لم تكن شيئاً إلى جانب العقوبة التي بعدها لحفونة اليوم ، وقال : «لسوف أزج في السجون بزوجاتهم وأبنائهم ، أو أبعث بهم إلى معسكرات الاعتقال ، ولن تأخذني بأحد رحمة ، وسوف أقتلهم جميعاً» . وقبل أن يرافق موسوليني إلى المحطة عين هملر قائداً عاماً للجيش الداخلى ، وأمره بأن تقله فوراً طائرة يذهب بها إلى برلين ؛ لكي يسحق حركة التمرد ؛ ثم اتصل بقائد فرق الصاعقة في العاصمة ، وأصدر له أمراً موجزاً قال فيه : «اقتل جميع المشتبه فيهم ؛ حتى آخر رجل !»

وكان هؤلاء المشتبه فيهم مقتنعين تماماً بأن هتلر قد مات ، فراحوا يتصرفون تبعاً لذلك في برلين وفي فرنسا . وما كاد الجنرال ستولناجل قائد قوات الاحتلال في فرنسا والجنرال (هوفاك) يبلغها نبأ (نجاح) عملية الاغتيال في حوالى الساعة ١٦,٠٠ حتى سارعا باعتقال أكثر من ألف ومائتي رجل من قوات العاصفة في العاصمة الفرنسية ، وفي مقدمتهم (أوبرج) مدير البوليس في فرنسا ، ثم راحا يوزعان الشمانيا احتفالاً بالنصر!

أما المارشال فون كلوجيه فإنه بدأ في قيادته العامة في (لاروش جويون) أكثر حذراً . وفي الساعة ١٨,٠٠ اتصل به ستاوفنبرج تليفونياً عن طريق (بيك) الذى ناشد قائد الجبهة الغربية أن يعلن صراحة أنه يؤيد المتأمرين . إلا أن فون كلوجيه قد علم لثوره أن هناك نفيًا قد صدر لموت هتلر ، وعند ذلك تردد ، وقال لمحدثه : إنه يتشاور هو وأركان حربه ، وسيعود لكى يتصل به بمجرد حصوله على إيضاحات عما يدور في برلين . وهكذا لم تمض الأمور كما كانوا يتوقعون في باريس .

أما في برلين فإن ترتيبات خطة «فالكبرى» قد تشككت منذ البداية ، وبمعنى أدق فإنها لم تبدأ ، كما نحا إلى علم ستاوفنبرج الذى روعه ذلك ، عندما اتصل تليفونياً في حوالى الساعة ١٦,٠٠ من مطار (رانجسدورف) بالجنرال أولبريشت : ذلك أن فشل محاولة يوم ١٥ من يوليو جعلت أولبريشت متحفظاً شديد الحذر . وفضلاً عن هذا الحذر فإنه كان يخشى أجهزة التصنت لدى الجستابو ، وخاصة بعد أن اتصل به الجنرال فيلججيل من «جحر الذئب» . وقال له ستاوفنبرج ينأشده : «ابدعوا العمل ولا تنتظروا حتى أجيء» ، فأمامى طريق يستغرق خمسا وأربعين دقيقة ، ويجب أن تصدر أوامر التنفيذ منذ الآن .

وكانت هذه الأوامر قد وقع بعضها (فيتزليين) منذ شهر ، وتحمل الأخرى التوقيع المزيف للجنرال فروم . وراح الكولونل مرتزفون كبيرهايم يبلغها عن طريق التليكس والتليفون ، وكانت الساعة قد تجاوزت الـ ١٦,٠٠ أى أن ثلاث ساعات ثمينة قد ضاعت بغير أن يتم احتلال أى وزارة ، ولا أى مبنى عسكري ، وكانت محطات الإذاعة تعمل بصورة طبيعية ، ولم تبدأ أى وحدة في التحرك .

واكتفى كل من (هيلدورف) مدير البوليس ، وآرثر نيه الجنرال بقوات العاصفة ، وكلاهما عضو عامل في المؤامرة ، بأن جعل جهازه البوليسى في حالة توقف .

وقد فطنوا إلى أن توزيع قوات العاصفة في برلين غير معروف على وجهه الحقيقى ، وأنه لم

يتم إعداد اتصال مأمون بين المتآمرين الذين لم يكن تحت تصرفهم سيارات للانتقالات . ولم يصل الجنرال (بيك) إلى وزارة الحرب إلا في الساعة ١٦,٠٠ على حين أن الجنرال فون فيترلين الذي كان سيتولى قيادة الجيش لم يعثر له على أثر .

وأخذ بيك وهوبنز وأولبريشت ويورك وشولنبورج وغيرهم يتحدثون في وزارة الحرب ، ويتقلون من مكتب إلى آخر ، وفي اختصار فإنه لم يتم عمل أى شيء قبل وصول ستاوفنبرج . وكانوا ينتظرونه حتى يقنع فروم بأن هتلر قد مات . وقال قائد الجيش الداخلي : « لقد حدثت مع كيتل بالتليفون . وقال لى : إن الفوهرر يتناول الشاي مع موسوليني » .

فهتف أولبريشت : « وكيف ذلك ؟ » والواقع أنه كان يعتقد أن الخطوط التليفونية في القيادة العامة مقطوعة . ومن ثم فإن فروم لم يستطع أن يتصل بكيتل . ولكن فروم طلب القيادة . ثم أعطى الساعة لأولبريشت الذى استمع وهو مذهول إلى صوت كيتل الذى قال له : « لقد كانت هناك محاولة اغتيال ، ولكنها فشلت والله الحمد ، ولم يصب الفوهرر إلا بجذش طفيفة ، وبالمناسبة . . أين رئيس أركان حرك ستاوفنبرج ؟ » .

أجاب أولبريشت : « إنه لم يصل بعد » .

ووصل هذا بعد قليل إلى وزارة الحرب ، فأبدى امتعاضه من أن شيئاً لم يتم ، وثار على « الأكذوبة » التى ردها كيتل ، وقال لفروم مهتاجاً : « إن كيتل يكذب : لقد أشعلت بنفسى فتيل القنبلة . ورأيته تفجر ، وليس هناك شخص واحد على قيد الحياة هناك ! » .

فأردف الجنرال فروم : « ليس أمامك الآن إلا أن تنتحر ! »

ولكن أولبريشت قال : « إننا نحن الذين سنعتنقك ! »

وبالفعل أغلقوا عليه أحد المكاتب ، ووضعوا هوبنز على رأس الجيش الداخلى . ولكن هوبنز الذى كان لا يزال متشككاً طلب الحصول على أمر مكتوب . والواقع أن الشك اجتاح جميع النفوس ، وأصبحوا غير واثقين من أن كيتل كان يكذب ، ثم إن خطة (فالكريرى) لم تكن تعالج حالة معينة هى بقاء هتلر على قيد الحياة .

\*\*\*

إن أحد المتآمرين القلائل الذى نجا من هذه المأساة ، وهو فايان فون شلابندورف . قد اعترف فيما بعد - بأن الدماء كان ينتظر أن تسيل أنهاراً يوم ٢٠ من يوليو . ولكن رجال ٢٠ من يوليو - بدلاً من ذلك - قالوا للعالم كله : « إننا لسنا ثواراً حقيقيين ! »

والحق أن ذلك هو ما اتضح من الوقائع : ففي الوقت الذي كان الجنرال فروم يقبض عليه فيه ، ويوضع أسيراً في غرفة بالطابق الذي يعوم مكتبه، لم تلق الأوامر التي أصدرها (مرتزون جيرنهيم) أى صدى جدى . فلم تحتل القوات المشاركة في المؤامرة سوى جزء من وزارة الحرب . وفي حوالى الساعة ١٧:٣٠ زحفت بعض فصائل من لواء حرس برلين على دار المستشارية ووزارة الدعاية . وهى تجهل أنه لا يمكن لأى إنسان دخولها إلا بتصريح خاص من الفوهرر . وقد صدرت الأوامر إلى الحرس التابع لقوات العاصفة بإطلاق النار على كل من يقترب من هذين المبنيين ، وإزاء ذلك انسحب أولئك المهاجمون إلى بعيد . وسرعان ما أبلغت القيادة العامة في « جحر الذئب » الحادث ، فعلق عليه هتلر قائلاً : « إن أولئك الأغبياء لم يقطعوا حتى أسلاك التليفون ! » .

وحوالى الساعة ١٨:٤٥ من اليوم نفسه أعلنت محطات الإذاعة الألمانية القوية على جميع أنحاء العالم أن معجزة قد وقعت ، فجعلت أدولف هتلر ينجو من الاغتيال ! وفي منتصف الليل اتصل جوبلز وهملر من وزارة الدعاية بقيادة هتلر . وأبلغاه أن المؤامرة قد تم سحقها ، وأن جميع الذين اشتركوا فيها قد أعدموا ، أو انتحروا .

وعند ذلك استمعت كل أوروبا إلى صوت هتلر قوياً مجلجلاً وهو يقول موجهاً حديثه إلى الشعب الألماني : « أيها الرفاق الألمان : إننى لم أصب بسوء ! وهذا تأكيد بأن العناية الإلهية ترعانى ، وما هؤلاء المتآمرون سوى حفنة من المجرمين الذين سيسحقون دون شفقة ولا رحمة ، وسنعاملهم كما نعامل الأعداء ! » .

ووفقاً لسجلات الجستابو فإن سبعة آلاف شخص قد اعتقلوا ، أعدم منهم ٤٩٨٠ شخصاً في اليوم نفسه أو خلال الأيام التالية .

وهكذا فإن مؤامرة ٢٠ من يوليو قد كشفت للشعب الألماني عن وجود معارضة داخل البلاد ، ولكنها معارضة محدودة لا عمق لها ، وأنها مجرد تآلف عدد من الأفراد الخاقدين ذوى المصالح الخاصة الذين لا يلقون أى تأييد .



٢٠ يوليو ١٩٤٤ :  
المارشال جورنج يطلق الأوامر من هتلر عقب المزامرة ، وقد عارده هدوءه تماماً ، وتقضى بسحق المتآمرين جميعاً .  
وقد وقف موسوليني مذهولاً يستمع إلى تفاصيل النتائج التي أسفر عنها الانفجار .



٢٠ يوليو ١٩٤٤ :

جورج (في الوسط) ومارتن بورمان (في أقصى اليسار) يمانان القاعة التي نجح هتلر بمعجزة من الموت فيها .  
وبعد وقوع الانفجار بثلاث ساعات ، كان الفوهرر يستعد لاستقبال الدوتشي الايطالي موسوليني .



الجنرال جودل (الثاني من اليسار) مدير العمليات والضابط في هيئة الأركان المشكّن من اختصاصاته ، وقع غاماً تحت نلوذ الفوهرر ، الذي استخدمه لتحويل مفاهيمه الإستراتيجية إلى خطط ميدانية .



الجنرال جودل يوقع يوم ٧ مايو ١٩٤٥ في (ريغن) وثيقة الاستسلام دون قيد ولا شرط . وقد أعدهم الحلفاء شتقاً في نورمبرج ، بغير مبرر كاف لذلك .



أول يناير ١٩٤٥ :

أدولف هتلر يستقبل هانز رودولف ، وهو الطيار الألماني الباسل ، الذي دمر بمفرده ٥١٩ دبابة للعدو ، وأغرق له إحدى سفنه الحربية وقد رفاه هتلر إلى رتبة (الكولونيل) وأنشأ خصيصاً له وساماً رفيعاً كان هو الوحيد الذي يجمله وهو (وسام أوراقي العار) الذهبي . وقال له في هذه المناسبة . إنك أعظم وأشجع جندي يمتلكه الشعب الألماني ، ، بينا وقف كل من جودل وكيبل ودويتيس .

obeikandi.com

## مراجع الكتاب

- ١- الأعيب الدول - جون سبانير
- ٢- مدخل إلى الاستراتيجية - الجنرال بوفر
- ٣- الصراعات الشاملة - جورج كينان
- ٤- علم السياسة وارنر شيلينج
- ٥- قصة بيرل هاربر - جيانى بو
- ٦- الأسلحة والسياسة الخارجية - هنرى كسينجر
- ٧- التفكير فيما لا نفكر فيه - هرمان كان
- ٨- مجموعة أعداد مجلة (هستوريا)
- ٩- الرايخ الثالث وليام شيرر
- ١٠- مذكرات فون هالدر
- ١١- في قلب الرايخ الثالث - مذكرات ألبرت سبير